اللذة المحرمة

مستوحى من .....

استهلال

-أنا لا أرجع معك! فهذا المكان بكـل قسـوته ليس أشـد قسـوة منك. ذلك النفور بعينيك لم تعد لى طاقة بحمله.

-عن أى نفور تتحدثين؟

قال الخليل فى هدوء ممتزج باليـأس. أطـرق صـامتا لوهلـة. و عاد يقابلها و هو يسـتند بيـده إلى الطاولـة و يميـل بقامتـه فيقابـل وجهها:

-أتظنين أن ما بعينى نفور منك؟!

أتظنين أن نفورى منك أنت و أنا أكره قلـبى الـذى يميـل إليـك عنى حتى يكاد يخترق اضلعى.

1

تهللت أساريرها حين لمحت مجرى ماء على مرمى البصر. لقد وصلت أخيرا.

نهار مشمس تخترق لفحاته الحارة بعض الجروح التى تعلو ذراعيها. قدماها الحافيتان تغرسان فى الرمال الملتهبة.

السواد أسفل عينيها المرهقتين لا يخفى لونهما الزيتونى.

كدمات على وجنتيها الممتلئتين، لكن لا تعكر اتساقهما. جرح عميق يسار ثغرها الممتلئ يلون شفتيها بحمرة الدم.

'ليال' هو اسمها. لها من اسمها حظ كبير. غامضة كالليل، حزينة كحزنه. أما عتمته فلا ينلها منها شئ.

تتأمل عينيها تلك البلدة الصغيرة أسفل الجبل. بلدة وسط صحراء قفر. أو تظنها الصحراء. و لكن حين تتأملها فهى بلدة تقبع على جانبى مجرى ماء ضحل.

كان ذلك المجرى منذ عقود أكبر من تلك المساحة الصغيرة التى ترتفع الأعشاب فى قعرها و تعطى صفحة الماء لونا أخضرا. و على جانبى المجرى تشققات فى الأرض تطرح حقيقة ماضيها. فقد كانت أرضا زراعية خصبة.

مـالت الحسـناء و التقطت بيـدها كـرة من الطين. تأملتهـا، ثم ألقت بها و اكملت طريقها.

لمحت العمران أخيرا. مسـحت على عينيهـا و عـاودت التحقـق. عجلت المسير حتى وجدت حجرة طينية صـغيرة، ارتخى جسـدها. لم يكن الأمر برغبتها. إنها راحة الوصول.

دلـف من الحجـرة رجـل عجـوز أشـيب ذو جسـد هزيـل. يرتـدى جِلبابا بنى اللون.

لم يبدُ أنه يلقى بالا إلى استغاثتها حتى ظنت هى أن صوتها لا يخرج. و لكن ظهور الأمل متمثلاً فى ذلك الرجل أفقدها كـل عزيمـة جديدة للتحرك. فاستسلمت للمرة الأولى و تمددت على الرمـال فى سكون.

***

فتحت 'ليال' عينيها و كـانت ممـدة على فـراش صـغير. قـابلت أول مـا قـابلت سـقف من جـزوع النخـل، تـتراص إلى جـوار بعضـها البعض و يتخللها الجريد. و من بينها تهرب أشعة الشمس، و تسـتقر على أرض الحجرة، و قد رسمت خطوطا متوازية من النور.

صـوت دقـات قويـة متتاليـة آلم رأسـها. نبهتهـا لوجـود امـراة جوارها تدق الحبوب، و هى تحتضن آلـة خشـبية بين فخـذيها. امـرأة صغيرة فى السن. يسترها جلباب أسود تعلـوه نقـوش بـارزة سـوداء اللون كذلك.

عينان كحيلتان. قسمات وجه منمقـة، و تعلـو وجههـا ابتسـامة بلهاء. وتربط رأسها بشال بنفسجى.

اقتربت المرأة من ليال تمد يدها بقطعة خبز التهمتهـا الأخـيرة فى عجالة.

و دون التفات للسيدة أو حتى شكرها اعتدلت ليال فى جلستها و سألت:

-أين يقع بيت السيد؟

لم يكن سؤال ليال مبهمـا كمـا ظنت هى فى أول الأمـر. ففى كـل تلـك البلـدة على اتسـاعها لا يوجـد إلا بيت واحـد يمكن تسـميته 'بيت' و هناك سيد واحد فقط. و هو حاكم السفح و ولى أمره.

حـاولت أم سـندس إثنـاء ليـال عن الخـروج فى ذلـك الظلام الحالك، و لكن إصرار الفتاة الشديد دفـع أم سـندس إلى التسـليم و الخروج بها.

مرّا فى طريقهما على الجانب الغربى للبلدة حيث يرتفع سُـوَر به مدخل وحيد يعرج بك إلى المقابر.

و المقابر مساحه تضفى جموداً و قسوة على المكان. كأنمـا لا تكفى قسوة البلدة بشمسها و رمالهـا حـتى تكـون نصـف مسـاحتها موتى. يقوم على حراستهم علاّم الحـانوتى و هـو أبـا سـندس. ذلـك العجوز الذى رأته ليال أول من رأت.

يـراقب علّام الفتيـان الصـغار المنتشـرون بالمقـابر بحثـا عن الطعام و المال من زوار الأموات. و يسقى كذلك الصبار، إذا مـا رأه أهل الزائر بشئ طبعا.

-إن زوجى حاد الطباع. قالت أم سندس .

و أعقبت:

-لا تغضبى لتركه إياك. فالبلدة بكـل أطيافهـا لا تحب اسـتقبال الزوار من تلك الجهة.

أومأت ليال و هى تفهم جيدا مقصد المرأة التى كـانت تتحـدث بشكل متواصل دون البحث عن جواب لحديثها.

سألت أخيرا كأنما تتلافى خطئا جسيما:

-ما اسمك أيتها الحسناء؟

-ليال.

ما كادت ليال تفصح عن اسمها حتى تحول محيا أم سندس إلى وجوم و تساءلت:

-أمن أرض العَلا؟

قالتها العَلا بفتح العين. هكذا تُنطـق. لا يسـمح أهـل أرض العَلا بكسر الأسماء فى لغتهم. حتى اذا كان الكسر فى اصـل الكلمـة ك ' ليالى' التى ينادونها فى أرضهم ' ليال'.

عقبت ليال فى سرعة:

-من أرض الصـنو. أجـابت ليـال فى تـوجس و عجالـة. و هى تحاول تلافى ذلك الخطأ. فهى تعى جيدا العداوة القديمة بين العلا و السفح.

***

تزاحمت البيوت. بعضها يشبه البيت الأول و بعضها أكبر. و بين كل بضعة بيوت من الطين لا يقابلهم إلا بيت واحد من الطوب الأحمر.

بعد سير طال و اسفل المنحدر فى طرف البلدة الشرقى. وجدت ليال نفسها أمام قصر له مهابة و جلال، يثير فى نفسها ذعر مختلط بحماسه. و يشبه قصور أرض العلا.

كان النهار قد حل عند وصولهم إلى القصر. ظِل القصر الممتد أقصر من ظل قصور أرض العلا. رغم أن لهما نفس الضخامة.

اقتربت ليال تتأمل أكثر تلك الآية . رغم وقوع عينيها على الكثير من مثيلاتها فى أرضها. إلا أن تواجد القصر وسط كل هذا الركام من حوله. و وسط كل تلك الأسطح الماثلة من الخوص. تجعل منه آية من آيات الجمال. كأنما هو مدينة قائمة بذاتها. على بوابته حروب لم تبدأ. و صراعات انتهت فقط أمام هيبته.

سحبتها من تأملاتها امرأة تشمر أكمامها عن يدين ملفوفتين سمينتين. تخنقهما ست أساور صدئة. واحدة باليد اليسرى. و خمس باليد اليمنى.

لها عيناها واسعتان. شفتان سوداوان و بقع على وجهها إثر شرب السجائر. وجه سمين. رقبة مكتنظة. يلفها منديل مزركش.

سيدة العبيد و اسمها ثنية. من سكان العلا و أهلها. طردها جدها و هى ابنة العشرة أعوام لأن بشرتها السوداء جلبت الشؤم لهم.

و تركها هنا بهذا البيت الغريب فى السفح لقاء قدر كبير من المال يرسله كل عام.

مال انقطع منذ زمن بعيد. و لكن لم يجد سيد هذا القصر فائدة من طردها. فهى داهية مطيعة فى كنف أسيادها.

تسترها عباءة سوداء من تحتها بنطال أسود ضيق من الصوف ينتهى بمركوب من البلاستيك أزرق اللون. تسرع الخطى فى سيرها فلا يسعها وزنها إلا التهادى رويداً رويداً.

قالت تخاطب ليال فى لهجة يغلب عليها التكلف:

-ألم اخبرك ألا تتحركى من أمام البوابة حتى أحضر!

أربك وجودها أم سندس بشكل واضح. فتبخرت الأخيرة خلال لحظات.

استدارت ليال لتحتضن خالتها و لكن ثنية قابلتها بالتحذير. فلا يجب أن يدرى أحد بأى صلة قرابة بينهما.

تجاهلت ليال تحذيرات خالتها، و اندفعت نحوها مجددا تحاول احتضانها. لكن ابعدتها ثنية. تأملتها للحظة ثم عادت تسحبها القصر.

لم تكن هيبة البيت من الداخل تقل عن خارجه. يفصل بين سوره و بنيانه أرض خضراء، حشائشها قصيرة. ترتفع فى بعض بقعها شجرات ظل متفرقة فى مساحة منه، أما من الداخل كان البيت ضخم مهيب كأنه عالم آخر منعزل و مدينة اخرى داخل المدينة.

ارتقت ليال سلالم قليلة، مساندها مصنوعة من نفس الحجارة الضخمة. لتقف أمام باب خشبى أصغر مما قبله، و من بعده دهليز لمسافة أبعد من أطول شارع بالبلدة. و السقف مرتفع فلا يتبين النظر تفصيلاته، إلا من بعض كريستالات متدلية من السقف . سُمك حائطه يمنع تتسلل أى حرارة أو برودة إليه . و إنما جو رطب و نسمة ناعمة.

يوجد بعد الدهليز مساحة متسعة جديدة أرضها من البلاط، بلون بنى متداخل مع لون كالرمال. فى الواجهة نافذة ضخمة تبدأ من ارتفاع ضئيل فوق البلاط الممهد، و تمتد إلى نهاية السقف العالى. و للنافذة أشكال دقيقة. تتخللها الشمس صانعة مسار من الأشعة يصطدم بالبلاط، كاشفاً فى الطريق عن أتربة تدور حول نفسها.

على جانبى النافذة منضدتان دائريتان صغيرتان تحمل كل منهما مزهرية بها وردات رأت مثيلاتها فى الحديقة الخارجية. أما يسارها فكانت ترتفع طاولة كبيرة بلون بنى محترق مصنوعة من نفس الأشكال الدقيقة للنافذة، و حولها العديد من الكراسى الخشبية من نفس لون الطاولة. تفترش فوق بسط زرقاء منقوشة .

و على اليمين طاولة أخرى قصيرة حولها عدد من الأرائك أيضا تتخلله تعاريق كالدخان، و تفترش عليها سرادق مزركشة باللون الأبيض. على الأرض يفترش بساط بصنع يدوى لونه من الأحمر الداكن مطعمة حوافه بلون الذهب. و فى الواجهة درجات مساندها من النحاس تأخذ منحنيات ناعمة لأعلى.

خرجت ليـال من تأملاتهـا على صـوت أحـدهم يهبـط السـلم. لا تتـبين عينـا ليـال إلا الأقـدام. حينهـا أحنت خالتهـا رأسـها للأمـام. و رويداً رويداً بدأت ترفع عيناها.

-إنه السيد ،همست خالتها.

التفتت ثنيـه إلى ليـال، و ازالت عنهـا ملاءتهـا فى عجالـة. فى محاولة منها للكشف عن جمال جسد الفتاة. الـذى لاحظتـه من تحت عبائتها. و كذلك عن شعرها الغجرى الطويل.

-ماذا تفعلين يا خالتى؟

-هكذا يرضى السيد، أجابت ثنية و أعقبت:

- إن رضى تستطيعين البقاء و إن لم يرض يطردنك فى الحال.

و لكن ما إن التفتت ثنية و رأت كـدمات تغطى كـل جسـد ليـال حتى بدا عليها بعض ندم . أعادت الملاءة بسرعة و هى تقـول أنـزلى عيناكى ولا ترفعينهما إلا حين يقترب السيد.

السيد رجل قد جاوز الستون، قوى البينة ضخم رغم كبر العمر، ندبة واضحة جلية تظهر هناك من تحت عمامته المنكفئة علي وجهـه بشكل واضح.

يلـف حـول رقبتـه شـال لونـه اسـود يتخللـه الرمـادى . ذو وجـه مستطيل منتفخ. عينان منتفختان بهما مكر شديد.

يلوّح بعكاز بيده لا يستند عليه، و إنما يحركه فى تفـاخر بشـكل مصطنع لا يناسب صحته. عكـاز أسـود اللـون عليـه نقش من الـذهب الخـالص يظهـر حـتى منتصـفه. أعطـاه لـه المالـك مكافئـة على إسهاماته. التى لا يدرى أحد عنها شئ.

امتلك تسيير أمور البلدة بالخلافة من بعد أباه الذى تسلم أمـور البلاد بالمحبة و التوكيل من أهل البلدة.

-من هذه يا ثنية ؟ سأل السيد و هو يدور حول ليال.

-خادمتك يا سيدى.

- و هل كنا بحاجة خادمة جديدة؟

-أنا بحاجتها يا سيدى، و ليس لهـا إلا نومتهـا و طعـام تقتسـمه مع بقية الفتيات.

أخرج السيد محرمة من القماش ووضـعها أسـفل ذقن ليـال، و رفع وجهها ليقابل وجهه و قال مليحة هى و لكن ماذا حدث لوجهها.

مر بعينيه يتفحص بقية جسـدها. اقـترب منهـا يشـم رائحتهـا و قال:

-أما رائحتها فليست مليحة.

ابتعدت ليال بسرعة خاطفة ليعرب العجوز عن ضحكات متتالية. وأعقب يقول:

-من أين أتيت؟

-أرض الصنو. أجابت ثنية

- آه آه فتيات الحياد.

استنكرت ليال الكلمة و الـتى كـانت من المتعـارف اسـتخدامها كسُّبة. و طريقة سيئة لوصف فتيات أرض الصنو .

أعقب السيد فى تجاهل لغضبها:

-من يترك أرض الحياد و يأتى إلى بلدة كالسفح؟

-أهاربة؟ سأل السيد. و أكمل:

-بالطبع، من بأرض الحياد و يسكن السفح إلا إن كان طريداً!

-أهى الفضيحة؟

ما كادت ليال تجيب فى استنكار جديـد بوجههـا الممتقـع حـتى عقبت ثنية تقول:

-نحتضننها. و أنت أهل الكرم يا سيدى.

صـمت السـيد فـترة و هـو يتطلـع مضـيقا عينيـه أشـار بعينيـه للخارج أن اذهبا. فدنت ثنيـة و قبلت يديـه و هى تعـرب عن امتنانهـا لسيدها أكرم الناس، كما وصفته.

خـرجت ليـال و خالتهـا و مـا كادتـا تصـلا إلى منتصـف الباحـة الخلفية للقصر حتى بادرتها خالتهـا بضـربة قويـة على خـدها الأيمن بيدها اليسرى.

ألم جاء كضربة قوية على الأذن لعدم اعتياد ثنية استخدام هـذه اليد.

ألا تفهمين ؟ قالت ثنية و أعقبت:

-عقل غبى، كأمك تماماً.

دارات ثنية و دارت حول نفسها. تعالت انفاسها كأنها صعدت جبلا، و أعقبت و قد واجهت ليال مرة اخرى:

-الآن الأمر ليس رفاهية، هنا قد تقتلين لأنك نششت ذبابة كان السيد يلحظها.

***

فى حركات سريعة و بمشيتها التى يتحرك بها كل أجزاء جسدها الممتلئ، راحت ثنية تتحرك بليال إلى ساحة البيوت الخلفية. أدخلتها غرفة يفصلها عن القصر باحة من الطين، و شجرة من الليمون تحنو حول الغرفة الكبيرة، و الكثير و الكثير من تكومات الماء المعجون بالطين.

الغرفة الواحدة ممتلئة بالحصر الممتدة على الارض فى صفين متقابلين. و فى الجانب الآخر من الغرفة هناك وابور جاز، و فرن كبيرة من الفخار تأخذ شكل نصف دائرة كبيرة، و فتحتها إلى الخارج كأنها جزء من بنيان الغرفة الطينة. و الكثير و الكثير من الأرغفة متروكة لتخمر تحت أشعة الشمس.

غرفة تتجمع بها الخادمات جميعا للنوم. و يحوى البيت عشر خادمات يتناوبن فى أعمالهن.

أولها غسل الملابس و هى المرتبة الدنيا للخادمات و يتم غسل الملابس على حدود المجرى. و لأنه عمل مرهق تتولاه أصغر الخادمات سنا و شأنا.

أما المرتبة الثانية فهى من نصيب الفتيات الاتى يقمن بتنظيف البيت كل صباح.

أما الطبخ يكون من نصيب فتيات أقدم، و تتولى ثنية الاشراف عليه و أكل بعد اللقيمات منه قبل تقديمه، للتأكد من صلاحيته للأكل.

ما كادت ليال تستقر و تلقى بملائتها فوق الحصيرة المخصصة لها، حتى وجدث ثنية تلقى إليها طشت غسيل يحوى كومة من الملابس. و رغم أن الليل كان فى منتصفه، إلا أن ثنية طلبت منها أن تخرج بهذا الطشت فور شقشقه الصباح.

القت ثنيــة على ليــال كلماتهــا و تركتهــا فى تلــك الحجــرة المخيفة. لا تكاد تغفـو حـتى تتمثـل أمامهـا صـورة أبيهـا و هـو جثـة تتدلى من سقف الحجرة.

2

جفاف أرواح و ابـدان. حـرارة الشـمس على السـفح لهـا نفس أثرها على الصحراء. لا تنجيك أمطـار و لا ينجيـك مجـرى على وشـك الجفاف.

الغوث لا يـأتى و منسـوب المـاء لا يرتفـع. جفـاف تعـانى منـه البلدة كل حين و حين لكنه لم يطل كل تلك المدة قط.

و فى القصر لا يختلف الأمر كثيرا. المعاناة واحدة. فالعطش و الجفاف لا يفرق بين مالك و متملك.

أما ليال والتى جافى النوم عينيها طوال الليل فقد خرجت من الصباح الباكر بيدها طشت الغسيل و اتجهت إلى ترعـة البلـدة لتبـدأ عملها الأول و استقرارها المقدر فى القصر.

***

مر اليوم الأول بسلام و لم يضايق ليال أى من أهل البلدة و لم يلتفت لها احد على الاطلاق على خلاف يومها الأول..

ربما هى ملابس خـدم القصـر الـتى حمتهـا فى ذلـك الصـباح.. كلفها غسل الملابس أول يوم النهـار بطولـه. مـا جعلهـا تفقـد كـل طاقتها. فنـامت تلـك الليلـة كأنمـا لم تنم منـذ سـنوات. نـوم عميـق استمر لصبح الليلة التالية.

أيقظتها قضمة لأصبع يدها الأصغر. ادركت بعد ذلك أنه قـارض. الأمر الذى افزعهـا، و اخرجهـا مجـددا قبـل شقشـقة الصـبح تحمـل طشت الغسيل بكميات اخرى جديدة من الثياب.

هكذا استمرت ايامها فى هدوء و استقرار يتخلله خـوف. و لكن خوف أقل مما اعتادته قبلها.

تشكر الله كل يوم أنها ما زالت حية و ان الصحراء و اليـأس لم يقضيا عليها منذ هربت أول الأمر من أرضها و بيتها.

تطـورت أعمالهـا سـريعا فى ذلـك المـنزل الصـغير. و صـارت تنتهى من غسل الثياب باكرا و تسرع إلى القصر حتى تقدم الطعام للسيد.

تقـف إلى جـوار الطاولـة حـتى ينتهى السـيد من عشـاؤه فى حجرته الواسعة ثم من بعد ذلك تقدم له الشاى. و تبقى جواره حـتى يذهب السيد إلى النوم.

كانت السيد فى العادة لا يبارح حجرته الواسعة التى تصــل فى اتساعها إلى حجم بيت من بيوت أعيان العلا. حجرة يجتمع بها هــو و جمع من الرجال هم خاصته و من يثق بهم. يده اليمنى و هو الخليل، ولده و بكره. و يده اليسرى هو رجل داهية يسمى سمعان الدرز.

حجرة واسعة فى الطابق السفلى ترفعها العمدان و يجلس هو فى واجهتها، فوق اريكة خشبية عالية كأنه سلطان على عرش.

يحكم فى مظالم الناس و هـو يجلس على مفـرش من الحريـر تحتـه سـرادقات من ريش النعـام، فى لوحـة سـاخرة لا تليـق بحـال السفح أو حال القصر نفسه بعد اعوام من الجفاف تربـو على العـام الرابع.

أما ليال فكان ما يهمها هـو أن أيامهـا و لياليهـا هادئـة، إلا من نظرات السيد الذى أمر خلال أيام قليلة من ظهـور ليـال بـأن تكـون هى الخادمة المسئولة عنه من الآن فصاعدا..

أمر كان بإمكانها تحمله و التعايش معه حتى حين.

لكن لم يكن ذلك الهدوء هو القاعدة فى القصر..

فذات ليلة استيقظت ليال على صوت صـراخ شـديد. ظنت أول الأمر أنه كابوس. فلا يبدو أن احد غيرها يسمع ذلك الضجيج.

و لكن فتحت احـداهن عيناهـا و كـانت فتـاة شـقراء جميلـة. أخبرت ليال أن تعاود النوم و قالت و هى تتثاءب:

-ستعتادين يا ابنة الحياد ستعتادين.

تحول الصراخ إلى رجاء و توسل خـرجت على اثـره ليـال و هى ترمى ملاءتها فوق رأسها. و تتحرك على أطراف أصابعها.

لمحت ذلك الحانوتى 'علاّم'. ذلك الرجل الذى رأته ليال أول من رأت.

كان على عجزه يحاول تلافى ضربات عصا تنزل به.

العصا بيد شاب يلـوح بهـا فـوق رأس الرجـل و يـنزل بهـا على جسده، فتصنع صوتا قويا فى الهواء قبل ارتطامها بالبدن.

يزحف علام على أرض الباحة الطينية محاولا تلافى الضربات و لكن دون جدوى.

و خلال لحظات كان علام اسـفل قـدمها يحتمى بهـا و يتوسـل إليها أن تغيثه.

غابت عن توسلات علام بخوف شديد حل بقلبها. تزيد من حدته حدة ملامح الرجل الممسك بالعصا.

الخليل هو اسمه. ابن السيد و الآمر النـاهى بـأمر هـذه البلـدة. رغم حداثة سنه، إلا أن كل أهل فى البلدة يخشـونه أكـثر من خشـية أبيه.

رغم ذلك لم تبدو ملامح ذلك الخليل رغم حـدتها بتلـك القسـوة التى تظهر بها عصاه. شاب طويل القامة عـريض الصـدر. أميـل إلى نحافة الجسد. لا يبدو أنـه تجـاوز عامـه الثلاثين بعـد. رغم ذلـك فـإن بعض الشيب يتخلل شعره البنى و لحيته.

له حاجبين عريضـين. عظـام وجنتيـه و فكيـه الحـادان تضـفيان جدية لملامحه. يرقق من حدتها عينان بنيتـان كحيلتـان تضـيع الـروح فيهما.

يتحدث و هو يميل برأسه للأمام قليلا. و يتطلع رافعا عينيه.

يداه تتخللهما العروق و تظهر عليهما آيات الشقاء.

بدأ 'الخليل' يشمر أكمامه عن يديه، و يشمر نفسه عن غضـبها. يسهب بسرد عبارات السب و الشتم و يكرر:

-منذ متى نـأوى رُسـل العَلا ببيوتنـا يـا علاّم! هكـذا تسـاءل فى غمـرة غضـبه و العصـا لا زالت تـنزل بالرجـل على أقدامـه و جسـده الذى صار ينزف.

و لما كان علاّم قد استقبل منادى أرض العلا عنده منذ ليلــتين. أطعمه و أواه و حمّله من الماء ما يكفيه فى طريق العودة. فقد كان يستحق أشد العقاب.

كان صراخ علام يشتد أكثر و أكثر، و ضربات الخليل كذلك.

و لما كان الفـزع يعلـو وجـه ليـال و ينتقـل إلى ارتفـاع صـوت أنفاسها. لحظ الخليل وجودها فى نهاية الأمر.

اعتدل و تقدم نحوها يسأل:

-من تكونين!

سؤال لم يعقبه جواب.

فأتى صوت من خلف ليال يغيثها:

-إنها الخادمة الجديدة يا سيدى.

كان الجواب يأتى من ثنية و التى أعقب خروج ليال خروجها.

-من أين أتت؟

-أرض الحياد يا سيدى.

-بالطبع و إلا لا تجرؤ.

-أية جرأة يا سيدى!

انتقـل الخليـل إلى ليـال الـتى تثبت عيناهـا على الأرض إتقـاء التقاء عينيها بعينا الخليل و هو يقول:

-ما اسمك؟

-ليال يا سيدى اجابت ثنية.

-ليال! و من الحياد! قال الخليل مستنكرا.

-إنها مصادفة يا سيدى. قالت ثنية.

هنا تساءل الخليل:

-و هل من عادة الخدم يا ليال تجاهل سيدهم.

تطلعت ليال فى استنكار إلى عينيـه، عيـنين قاسـيتين. عـاود الخليل الوقوف أمام الرجل و أشار إلى ليال و قال:

-اقتربى اقتربى يا ليال.

كـان الخليـل يشـير إليهـا بحمـل العصـا، و معاقبـة علام الـذى تستغيث بها عينيه!

كانت نبرة الخليل القاسية المخيفة سبب كاف للطاعة.

اقتربت ليال فى تـوجس. مـد الخليـل يـده بالعصـا إليهـا و هـو يكرر:

-اقتربى يا ليال لا تخافى.

وضع الخليل العصا بين يديها المرتجفتين و هو يقول:

-هيا!مشيراً إليها بضرب الرجل.

-هيا هيا! كرر الخليل

و أعقب:

-فى الضــربة الأولى تظــنين الأمــر صــعبا، لكن تتبعــه متعــة عظيمة.

تساءلت ليال بجهل:

-ماذا؟

-أى ماذا؟ هيا، إنه العقاب الأمثل لرجل آوى منادى للعلا.

و اعقب:

-هيا أنا سيدك! و أعطيك الإذن!

بقيت ليال على حالها متحجرة. لتتدخل ثنية محاولة منع غضـب الخليل عنها:

-هيا يا ابنتى أجيبى سيدك.

لم تفهم ليال فى بادئ الأمر. ظنت أنه لا يعنى ما فهمته حقا. لكن الخليل وقف منتظرا إياها حتى انتهى صبره فصـرخ بهـا صـراخ أفزعهـا. و لم تعـد إلى رشـدها إلا و هى تحمـل فى يـدها قالبـا من الطوب و تقف أمام وجه تسيل منه الدماء و تعلو ابتسامة مخيفـة. و لكن كان سيل الدم ذلك ينبثق من وجه الخليل لا وجه علّام.

3

حدة الشمس و حرارتها و تلك الصحراء التى تلف السفح كـانت أهون على ليال من ظلام يلفها و برد يأكل جسدها.

فى قبو القصر حيث تمتد مسـاحة من أرض رمليـة تُفضـى إلى حجرات عديدة لا أبواب لها. وجدت ليال نفسها و العتمة تلفها.

لم تكن المرة الأولى على كل حال. و لكنها ربما المرة الأخيرة بعد ما فعلت!

ربما لن يبقى ذلك الخليل على قيد الحياة. و حتى إن حدث، لن تخرج هى من هذا القبو إلا جثة هامدة.

حاولت إقناع خالتها أنها لم ترغب فى قتله أو حتى فى إيذائــه و لكن كيف لأحد أن يصـدقها و قـد شـهدت فعلتهـا كـل الخادمـات و معهم علام!

ليلة و اثنين و ثلاث، يلقـون إليهـا فتـات خـبز. لا يتحـدث إليهـا أحد. و لا يخبرها أى شخص بمصيرها. تعيـدها الظلمـة المحيطـة إلى الماضى.

الذكريات نفسها التى تحاول نسيانها تعاود التشكل.

يرجع عقلها عـام خلـف عـام. لا تقابلهـا ذكـرى سـعيدة إلا فى طفولتها.

أباها أمام عينيها و تراه رؤى العين. يسقى بيده الزهور. فتبين ألوانها بعدما انجلت عنها اتربـة الليـل. و تبقى حبـات المـاء كالنـدى فوق الأوراق الخضراء.

يقدم لها زهرة وردية و يقول جملته الهزيلة الطيبة:

-هذه الزهرة لزهرتى. تؤنس ليل 'ليال'ى.

جملة بسيطة لم يبـذل جهـد فى صـياغتها و لكنهـا تحيـل نهـار ليال إلى نهار أسعد.

هل أخطأت هى حين تركت جثة أباها معلقة و هربت!

هل وجب عليها التحمل أكثر قليلا!

ماذا لو أن الحياة قررت إهداء أباها معجزة فى ذلك اليوم؟

ماذا لو كان اباها كان حيا و لم يقتلـه سـيل الـدم و هى يقطـر من جسده قطرة قطرة! ماذا لو أن المصادفة أيضـا أبقتـه حيـا رغم كونه معلق بحبل من رقبته على مرأى و مسمع من أهل البلدة!

ماذا لو أن روحه كانت تتطلـع إليهـا و هى تهـرب؟ مـاذا لـو أن تلك الروح خاطبتها و سألتها البقاء؟

ماذا لو أن روح أبيها كـانت تطـوف حولهـا و تـأنس بهـا، و هى تركتها فى وحشة و جفاء؟

اخرجها من سباتها صوت مألوف سمعته يقول:

-لا تخافى ستعتادين هذه الظلمة.

كان الصوت لتلك الفتاة التى تنام فى الحصـيرة المجـاورة لهـا نهاية كل ليلة.

اسمها نعمات. فتاة شقراء. تجـدل ضـفائرها الذهبيـة و تـدليها على صدرها. ضعيفة الجسد. لها عينان واسعتنان عسليتان و أهـداب طويلة. فم صغير. و بشرة يختلط بياضها بحمار.

كانت بالأصل راقصة. أتى بها الجد إلى القصر. رأها و هـو يمـر بأطراف البلدة. فاخبرها أن براءة عينيها لا يتناسـب معهـا أن تكـون من الغوازى.

-رائحة المكان أصبحت غريبة. قالت ليال.

اقتربت نعمات و همست بأذنيها:

-لقد صار لك جار من أرض العلا. إنه المنادى نفسه. أمسكو بـه على حدود أرضك.

و أعقبت تطمأن ليال:

-لا تخافى منه فإنه مقيد جيدا.

***

خلال اعوام طويلة شهدت البلاد سوء العلاقة بين أهـل السـفح و أهل العلا. لا تمر قافلة واحدة من أرض العلا عبر السفح.

أهـل السـفح كـذلك لا يتجّـرون من أرض العلا. و لا يسـمح لهم بالولوج إليها.

بدأ الأمر منذ خمسون عام مضت.

و السبب فى ذلك هو أنه فى يوم من الأيام تسـلل أحـد رجـال السـفح -الـذين عـانو طـويلا من بطش العلا و جـورهم- إلى بيت من بيوت العلا. قتل اسقفا من أهلها و يعتبر أحد أعيانها.

دب سكينا فى صدر الرجل و أعقب تلك الضـربة بطعنـات عـدة حتى لفظ الرجل أنفاسه عند الطعنة السادسة عشر.

كانت الطعنات كلها متجـاورة. بعضـها فى البطن و بعضـها فى الصـدر. أمـا نـافورة الـدماء الـتى زينت الحائـط المجـاور لفـراش الأسقف كانت نتاج طعنة فى رقبته.

يقولون أن ذلك الرجل قـد تعرضـت زوجتـه للأغتصـاب على يـد ذلك الأسقف. و قد كـان هـذا النـوع من الحـوادث منتشـرا فى تلـك الفترة، و يقال أنه نوع من أنـواع التـأديب و تعجـيز لرجـال السـفح. التأديب على ماذا! لم يكن أحد يعلم!

و لم تخمـد عـواقب حادثـة الأسـقف. حـتى علم أهـل العلا أن القاتل من أهل السفح. و لمـا لم يتمكنـو أبـدا من معرفـة مـا هيتـه، قررو عقاب البلدة بأكملها.

بدأ الأمر بحالات قتل فردية، و انتهى باعـدامات جماعيـة و مـع ذلك لم يعترف القاتل بفعلته و لم يعترف عليه أهل البلدة أبدا.

و لما كانت فعلة العلا الشنعاء تجوب البلاد فقـد قـرر حـاكمهم تغيير العقوبة. و كانت العقوبة اغرب من سابقتها.

قام المالَك باصدار قانونا يمنع التقاء أطفال البلدة بشـبابها أو كبارها.

و المالَك بفتح اللام هو مالك العلا، يذكر أنه حين أصـدر قانونـه المعروف بعدم كسـر الأسـماء فى داخـل أرض العلا. تغـير لقبـه من الملِك بكسر اللام إلى الملَك، بفتحها. و لمـا كـان هـذا الأسـم يشـير إلى الملائكـة أكـثر منـه إلى البشـر فقـد تم تغيـيره مـرة أخـرى إلى المَالَك. و صار لقبه 'مالَك العلا.

***

كان قرار المالَك -بمنع التقاء اطفال القرية بكبارهـا- يُسـتثنى منه ساعات الليل حيث ينعدم تقريبا وجود الناس فى الشوارع.

كان هـذا العقـاب يبـدو سـخيفا أول الأمـر. فبإمكـان الأطفـال قضاء وقت ممتع سويا داخل البيوت ولا حاجه لهم بالخروج.

لكن مع الوقت لم يلتزم الأطفال بتلك القوانين.

و كل من يخرج من الأطفال نهارا كان يردى قتيلا على الفور.

بلغت أعـداد القتلى مـأتى طفـل و عشـرة فى العـام الأول. و تقلص العدد إلى طفلين فقـط فى العـام الثـانى. حيث وصـل الأمـر بالأبـاء إلى أنهم قـامو بربـط ابنـائهم بسلاسـل طويلـة تضـمن لهم حرية الحركة، و لكن داخل حدود البيت فقط.

استمرت هذه الحالـة سـنوات خمس أو يزيـد حـتى تـدخل أهـل أرض الصنو بالصـلح بين السـفح و العلا. و انتهى الأمـر بعـد خسـارة مئات من أطفال البلدة.

***

حاولت ليال تناسى هذه الأفكار و اخراجها من عقلها. فمن قد ينبش ماضيها، و لمـاذا؟ و من قـد يعـرف أنهـا ابنـة العلا و هى على هذه الحالة؟

و لما كان الهدوء حولها يخيفها و يكـاد يصـيبها بـالجنون، فقـد قررت التحرك إلى حيث المنادى. علها تأنس قليلا بالحديث إليه.

صـارت تتحسـس الحوائـط من حولهـا و تخـرج من حجـرة إلى أخرى فى محاولة لإيجاد الحجـرة حيث يجلس المنـادى. و لمـا كـانت تنـادي و المنـادى لا يجيب فقـد قـررت العـودة إلى حجرتهـا. و لكن ارتطمت قدماها بجسد بارد و تحسست أصـابعها بـدنا هامـدا،و كلمـا مالت إليه أكثر شعرت برائحة نفاذة عفنة تخرج منه. لقد كـانت جثـة المنادى!

مع تحول النهار بضياءة إلى عتمة تغطى الأرجاء كان الخليـل و عليّا يقرءان الفاتحة أمام قبر جدتهم. و حين انتهيا رجعا عن القبر. لا يولون ظهروهم إليه. بل ينسحبون للخلف و هم يرددون السلام.

تجاور القبر حجرة لها بنيـان رملى مـا إن تلامسـه حـتى تجـد كتلة من الرمال تتفتت بين يـديك. و الغـريب أن هـذا البنيـان الهش قائم منذ وقت طويل.

الحجرة لا باب لها ، أرضها غير مستوية. فارغة من كل شـئ إلا عدة قباب من رمال و حجارة. و ثلاث أرائك قديمة. و ربابة داخل خرقة من القماش. اعتاد الخليـل و صـحبه التجمـع بهـا من حين إلى حين. لم تكن هذه المسـاحة فى طـرف البلـدة -قبـل سـنوات عشـر مضت – تحوى شئ إلا تلك الحجرة. و لم تكن هناك كل تلك المقابر.

و لكن مع مرور الأعوام زحفت المقابر تجاه الغرفـة. ذلـك مـع ازديـاد الأوبئـة و المجاعـات عامـا بعـد عـام. و تـدهور الأحـوال فى السفح..

أمسك علّى الربابة. بدأ ينشـد. لـه صـوت عـذب. تعلم العـزف و الإنشاد من جده.

و علّى هو الأخ غير الشقيق للخليل شاب قليـل البـدن لـه ذقن ملساء. لا شئ يميز ملامحه الهادئة ، تشعر كأنك رأيته مئات المرات قبلاً و فى مئات الوجوه.

بشـرة قمحيـة، عيـنين بـاردتين ظعيفـتين ذلـك الضـعف الـذى يشعرك أنها لم تُملى رؤياها بشئ من قبل، كأنه يهـاب أن يفتحهمـا على وسعهما .

هو الابن الأصغر للسيد. وُلد بعد الخليـل بعشـر سـنوات. يعتـبر الخليل أباه. يأخذ منه أوامره و نواهيه. و قد تربى على يديه.

يُذكر أن علّى قال أبى للخليل قبل أباه.

***

لغـط يتخللـه عويـل أخـرج الشـابان من الحجـرة ليشـهدو على مرمى البصر نيران مشتعلة، تعلو قرب مجرى الماء.

كلما اقتربو منها كلما بدت أعظم مع سحابة من الدخان الأسود .

تجمعات من أهل البلـدة ، تحسـبهم قلـة فى البدايـة، و إذا بِـه تجمع ضخم تتخلله أحاديث صاخبة.

اتضح الأمر بعد دقائق من الركض خلال خلال المقابر. سيل من البياض يمر بدلاً من المجـرى. و الـذى هـو مصـدر المـاء الوحيـد فى البلدة.

غوث تنتظره البلدة منذ أشهر. و لكنه أتى لونـه بلـون الحليب . يضيع بدر التمام فى بياضه.

و لما كان إشـعال النـار فى المصـاب للاسـتغاثة، عـادة قديمـة لأهل البلدة. فقد ارتفعت سحابة من الدخان فـوق المجـرى الأبيض. بنيران صنعها أهل السفح و زودوها بالأخشاب و الحجارة.

يقولــون ' النــيران إن هى اشــتعلت لا تنطفئ ســريعا. و إن خمدت يبقى رمادها فى الأرض و دخانها فى السماء أبد الدهر'.

وعلى الرغم من أنه لم يأت الغوث قط. إلا أن هـذه العـادة لم تندثر أبدا!

كاد الجمع يتفرق و يهدئ قبل أن يعلو صوت امرأة فزعة.

صرخات يرجف لها القلب. تضرب المرأة فتى صغير لا يتجــاوز عمره الأعوام الخمس!

كانت أم حسن. انسل ولدها الصغير من بين الجمـع. دنـا للنهـر نصف عارى. يضع الماء الأبيض على بدنه و يشرب بعضاً منه ظنا أنــه الحليب.

كانت أم حسن بوجهها الدائري و شعرها الـذى يتخللـه الكثـير من البياض تضرب الأرض و تحمل ترابه و تضعه فوق رأسها.

يخرج صوتها ممتلئا كامتلاء بدنها. تضرب الطفـل و تسـأله أن يُخرج ما فى بدنه. و الصغير فى يديها ضعيف البنية نحيـل الجسـد و أضلعه تبدو محدده بارزة و بطنه تكاد تلاصق ظهره.

لم تجدى ضرباتها بشئ فقد تحول الطفل إلى جثة هامدة ، يخرج من فمه خيط أبيض كبياض المجرى.

حاول علّى حمل الطفل عن المرأة فما كان منها إلا أن ازاحته بلكمـة قويـة من يـدها على صـدره تسـأله أن يتخلص من فتـاة العلا التى تحتمى ببيته. فقد جلبت و أهلها الشؤم عليهم.

لم يبـدو أن علّيـا أو الخليـل يفهمـا حـديث المـرأة. و لكن بعـد تفكير بدا أن امرأة واحدة ينطبق عليها ذلك الحديث.

حديث تناقلته الخادمات عن لسان ثنيـة و ليـال. و انتقـل منهن إلى نسوة البلدة. اللاتى خشين الحديث بأمر يخص الداهية ثنية.

***

ظلمة و كآبة غطت البلـدة فى لحظـات. و مـزيج من الـدخان و الحزن أخفيا بدر التمام. و اظلما الرؤية فى عيـنى الجميـع. ليكتمـل المصاب بأمر لطالما انتظره أهل البلدة!

أمر يعقب كل كارثة و كل مصاب.

أمر أعتادوه منذ زمن!

لمحــه الخليــل على مــرمى البصــر. دنــا و جلس فى حــزن و استسلام قرب المجرى. سحب الجثة ما ان اقتربت.

جثة مشوهة تماما هـذه المـرة . بعض ملامحهـا ضـائعة مجـردة من كل شئ. يلتف حولها الخيش و لا يظهر إلا الوجـه. كـانت الجثـة لفتى اختفى منذ أشهر. يرتدى جلبابا أصفر اللون.

عيسى! كان الشاب الوحيد الذى يصنع ملابسـه بـألوان أقمشـة نسائية.

خلال لحظات كان بدنه مطوق بذراعى الخليل. الـذى كـان يعلم مآل صاحبه و لكنه لم يشأ أن يصدق إلا بعد أن رأى جثته أمام عينيه.

انسـل الخليـل خلال بضـع دقـائق من بين الجمـع. تحـرك على طريق المجرى. على حافته. حتى يكـاد يـنزلق من حين لآخـر. يتأمـل صفحة الماء البيضاء. لأول مرة لا يكون اللون الأبيض لون خير.

كان لأول مرة لا يحمل وجه الخليل إلا علامات حـزن فقـط. لا يحول بينه و بينها غضب أو حقد أو مرارة لا يشعر بتأجج فى صدره. إنما فقط حزن. حزن شـديد. كـأن أضـلعه تكـاد تنقبض على قلبـه و تعصره عصرا.

يمد إحدى المشاعل قرب الماء من مسـافة لأخـرى. عـل بـاقى البقاع ماؤها نقى. و لكن لم يحدث ذلك.

سـار و سـار طـويلا حـتى انقطعت انفاسـه. و انقطعت معاهـا العتمة.

مال على حجر و غفا. غفا جسده قبل عقله و عينيه.

لم يستطع تحريك أطرافه للحظات حتى نام على الفور.

لطالما عرف هو عن العلا. لطالما عانى أهل البلدة فى السفح من بطش مالك العلا.

هل حاول أهل أرض الحياد نشر السلم بينهم؟!

نعم ربمـا حـدث ذلـك و لكن من كـان يـدرى أنهم سـيلتفون و يضربون من الخلف كالجبناء.

من يعلم أنهم سيرسلون كل عام أو اثنين فتى مشوه.

كل عام يختفى أحد فتية البلـدة. و مـا يمـر وقت طويـل حـتى يجرف المجرى جثته.

جثة مشوهه تماما. فيجتمع كل اهل البلدة للتعرف عليها.

و ينتهى الأمـــر بمعرفتهـــا من ثيابهـــا. أو من علامـــة محـــددة بالجسد.

حيث تضيع ملامح الوجه مع التشوهات و الماء.

***

اســـتيقظ الخليـــل على صـــورة الســـماء و حمرتهـــا أشـــد من المعتاد. تطلع من فوق التلة إلى السفح. كان كل شئ على حاله.

الجمع من الأمس تفـرق. و من المؤكـد أن ذلـك الازدحـام عنـد المقابر هم أهل عيسى، يوارونه التراب.

أما غير ذلك فكان هدوءا مخيفا. و مجرى مضـئ. تضـرب أشـعة الشمس ببياضه.

الطيور لا صوت لها. ربما حزنا على المصاب.

كادت نفسه تهدأ للحظات لولا أن سمع صوتا لم يدرى مصـدره. تذكر المنادى. هبط إلى القصر. كان يخـبئ وجهـه من الجميـع. يـرى اللوم فى كل عين.

أوليس هو ابن حاكمهم؟! أليس هو خليفة أباه فى هذه البلدة!

تحرك كالممسوس. هبط التلة و منها إلى القصـر. عـبر بوابتـه الخلفية و منه إلى القبو.

استوقفه صوت دقات ضعيفة. على بـاب القبـو. و مـع هبوطـه تشتد سرعة الدقات. كان الصوت يبدو أقوى كلما اقترب.

تحرك إلى أسفل كان صوت اصطكاك قدميه بالسلالم الخشبية القديمة، يأتى أعلى من الدقات التى بدأت تقوى و تتسارع. و صوت ينادى من الداخل:

-الرائحة هنا سيئة، و جسده بارد للغاية، جسـده بـارد للغايـة، و رائحته سيئة.

صوت متهدج باكى يكرر الكلمات بتلعثم.

و ما كاد الخليل يفتح الباب رويدا رويدا حتى وجد جسدا ينـدفع بقوة نحوه. و يد صارت تمسك جلبابه بقوة. بـدن مـرتعش. و لسـان يكرر:

-إنها نفس الرائحة. تشبه رائحة أبى. الرائحة تشبه رائحـة جثـة أبى!

مر بعض الوقت و لازال الخليل فى حالة جمـود. يـرغب بعضـه بإبعادها فيمنعه ذلك الاضطراب ببدنها، و أصـابعها الممسـكة بثيابـه. امسكها أخيرا من كتفيها فتراخت يدها المتشبثة به.

كان قد قدم و هو يفكر بقتل منادى أرض العلا. و قتلها.

لكن جثة المنادى كانت ملقاه قرب حجرته. لونه شديد البيـاض. تكاد تشعر ببرودته تتسرب إلى الهواء و تحيله سقيعا.

و خلال لحظات كان الخليـل أعلى الـدرج تاركـا ابنـة العلا، دون مبالاة بصراخها أو تلك الدقات الضعيفة المستنجدة.

5

سكون لم تعتده القرية الصاخبة على ضيقها و تقـارب بيوتهـا. هدوء مخيف حد الموت و حد الحياة.

مر عشرون يومـاً على حادثـة النهـر .أقـامت القريـة حـدادا، و لكن طال عن كل مرة سابقة. يخيم فوقهـا شـبح حـزن شـديد هـذه المرة .

استكانة حزن كانت و ليست استكانة خوف. استسلام يـبين فى الأصوات و حتى على الأبدان.

أما الأطفال فقل مرحهم. ربما أسفا على الفتى قرينهم الذى فارقهم. و ربما انتقلت لهم العدوى من الكبار.

أهل البلدة يحذون حذوا عجيبا. يشربون ماء المجـرى مـع طين الأرض و حشائشـها. هكـذا نصـحتهم العجـوز الغجريـة الـتى تسـكن أطراف البلدة. و لمـا كـان المـوت عطشـا هـو البـديل الوحيـد لهـذه الفعلة. فقد شرب أهل البلدة الماء الملوث بعد غليه و خلطــه بطين الأرض و حشائشها.

لا طاقة لأحد بالعمل. كل بيت خبئ مخزون خاص به منذ مدة.

اعتاد أهل السفح مثل هذه التقلبات فى المجرى. صار كل فرد فى القرية ذو خبرة منذ أمد بعيد سواء باقتراب جفاف أو نقص طعام.

يخزن كل بيت قدر المستطاع من كليهما. أما العمل فيقل تماماً و تفرغ الشوارع.

كان هذا هو الحال خارج القصر. أما داخله فكانت أصوات قهقهات تأتى من الطابق العلوى. يلى القهقهات صراخ شديد تجمّع على اثره كل أهل البيت و خدمه.

كان الخليل آخر من وصل.

صعد إلى غرفة الجد حيث مصدر الصوت.

الطابق العلوى يتكون من ثلاث حجرات. حجرة فى نهاية الممر إلى اليمين و هى حجرة السيد أبا الخليل. و حجرة نهاية الممر إلى اليسار و هى حجرة الخليل و علّى. أما الحجرة الثالثة و المقابلة لنهاية الدرج فهى حجرة الجد.

الطلاء الخارجي للحجرة ناصع البياض لكنه لا يُخفي اضطراب داخلها.

تحوى الحجرة أثاثا قديما. و كأنها ليست جزءا من القصر. كل شئ داخلها قديم. بعض حوائط الغرفة مغطى بآثار احتراق واضحة تشتد حول النافذة .

إلى يسار النافذة طاولة فوقها كتاب وحيد لا غلاف له. و يمين النافذة فراش يتمدد فوقه الجد.

جد الخليل. و اسمه غالب الصقلى. رجل قد جاوز التسعين. قامة قصيرة. لحية بيضاء و بشرة شديدة البياض كذلك. جسد ضئيل نحيف، عينان مبيضتان و شفتان منطبقتان.

أصابه المرض مؤخرا. و كلما تسطح يفقد القدرة على سحب الهواء إلى صدره. و صارت الوسيلة الوحيدة ليتمكن من النوم هى بوضع العديد من الوسائد خلف ظهره.

على أرض الحجرة تفترش سجادة أرجوانية تبين علامات الاحتراق على أطرافها . كذلك السقف استحالت كريستالاته إلى اللون الأسود اثر تراكم دخان الحريق عليه.

يُذكر أن بيت الجد قد احترق هو دون الثلاثين عاماً. فى حادث رحلت فيه زوجته و وليدته. و لطالما ظن أهل البلدة أنها حادثة كأى حادثة. لكن الجد وحده يعلم أن امرأته لم تتحمل فقر مدقع حل بهم.

وحده كان يعلم أن زوجته كانت تقضى النهار كل يوم و هى تفكر فى الموت كوسيلة للنجاة. و لما لم تتمكن من اقناعه بالأمر انهت حياتها و حياة وليدتها.

كان ذلك فى ليلة خرج فيها الجد غالب من السفح و لم يعد إلا بعد خمسة عشر عاما.

عاد و معه طفل صغير و هو السيد، و قدر كبير من المال يملأ صناديق لا يعلم أحد عددها، أو مصدرها.

مال أعطى بعضه لأهل البلدة الذين نصبوه حاكما عليهم بعد ذلك. و صنع ببعضه قصر كبير يشبه قصور العلا تماما.

قصر بناه و أتمه و جعله على أجمل صورة. ثم أشعل النار فيه حتى احترق تماما. و سكنه و هو على تلك الحالة.

و مرت السنوات و كبر السيد و أصلح بعض حال القصر، و لكنه لم يتمكن من المساس بحجرة الجد أبدا.

***

لم يهدأ صراخ السيد إلا حين لمح الخليل أمام الحجرة. أما قهقهات الجد فاستمرت حتى بعد رؤية الخليل.

كان السيد أبا الخليل يمسك الجد من تحت ذراعيه و ينادى نعمات حتى تساعده.

اقتربت الشابة الخجلة و أمسكت بيد الجد الذى أعرب عن ضحكات جديدة لم يتحملها صدره فاستحالت كحكحات متتالية.

اعقب أبا الخليل مناديا ابنه الأصغر فى تجاهل لضحكات الجد التى أغضبته أكثر:

-و أنت يا على تعالى إلى هنا ساعدنى.

و ما أن استقام جسد الشيخ التسعينى على يدى نعمات و علّى حتى مال أبا الخليل و أمسك بقدمي الجد النحيلتين و رفعهما.

حركة أفقدت الجد توازنه و افقدت علّى عقله حتى صرخ :

-يا ابتى، ماذا تفعل؟

-ستعلمون، أجاب الأب.

كان السيد ينوى طرد أباه إلى خارج القصـر. و لكن مـا إن لمح الخليل حتى بدا عليه بعض ارتباك. و رغم ذلك و بعد لحظـات سـكون عاد يشير إلى علّى بالتحرك.

-ما الذى يحدث هنا؟ تساءل الخليل.

أجاب السيد متلعثما كالذى يدرك عظم خطأه:

-إنه بيتى. هذا بيتى يا خليل! أُبقى على من أشاء و أخـرج منـه من أشاء.

دَنا الخليل و حمل جـده من ابطيـه. و لكن نكـزه السـيد بعكـازه فى صدره يقول:

-لا تعارضنى، ثكلتك أمك.

مال الخليل إلى اذنى أباه يقول بصوت خفيض:

-إنه الجد يا أبا الخليل. لا يتركنا أهل البلدة و شأننا إن علمو أن أحدا مسّه بسوء.

كلمات بدت منطقيه للحظات حتى ثار غضب أبا الخليـل مجـددا دون سبب واضح و قال بكلمـات قاطعـه و هـو يرفـع يـده اليمـنى و يقسم:

-والله لا يدخلن هذا البيت. ثم التفت إلى على يقول:

-فلتذهبو به إلى القبو.

كان جدال الجد و السيد أمـرا معتـادا و لكنـه لم يصـل أبـدا إلى تلك المرحلة. و كان الكل بالطبع يدرى سبب ذلك الجدل. إنها أمـوال الجد المخبأة منذ زمن.

بقية الأموال التى عاد بها، أين ذهبت؟

حاول السـيد معرفـة مكانهـا مـرارا و تكـرارا لكن الجـد لا يفتـأ يكرر أنه لم يعد يملك مليما واحدا.

كلمات كانت حقيقيـة لكن لم يكن السـيد يـرغب فى تصـديقها أبدا.

***

اختفى أبا الخليل ارتفاعا إلى السلالم فدنا الخليل و جلس إلى الجد. قبل يديه و رأسه و قال:

-يـا علّى ارجـع بجـدى إلى غرفتـه و احضـر بعض السـرادقات خلفى إلى القبو.

تحرك الخليل دون أن يلاقى عينيه بعيـنى الجـد خـوف أن يـرى فيهما انكسارا يؤذى نفسه. و اتجه إلى القبو لتجهيزه.

و لكن لمعت بعقله فكرة وحيدة مخيفة! فتاة العلا!

6

تسارع فى دقات قلبه و خوف يثقل قدميه. رائحة نفـاذة تـبين من منتصف الباحة. رائحة الموت.

بـالطبع لم تكن الرائحـة حقيقـة و لم تكن موجـودة على تلـك المسـافة من القبـو. و لكن هكـذا خُيـل إلى الخليـل و هـو يقطـع الطريق هرولة من القصر إلى باب القبو.

على اطراف الدرج صارت الرائحة حقيقية تماما. إنها رائحة الموت.

ادرك الخليل أنه قتل الفتاة. حاول مناداة علاّم و لكن صوته لم يخرج فى المرة الأولى. حاول مرة أخرى فخرج صوته عاليا قويا محملا بالأسى.

ليس الخليل بالرجل الذى يبالى! هل يشعر بالأسى لأنها استغاثت به؟ هل تشبثها به فى تلك الليلة يشعره بتأنيب الضمير؟

انقباضة وحيدة حلت بصدره و لم يكن قد ألف ما شعر به من قبل. لا بل قد فعل! هو يتذكر الآن هذا الأمر.

عاد بذاكرته لخمسة عشر عام أو يزيد. فى ليلة خرج بها يتسلل من الباب الخلفى للقصر.

تلك الفترة التى لم يكن مسموح فيها بخروج الأطفال للعب إلا ليلا!

سمع صوت صراخ قادم من المقابر. صوت مألوف. بدأ يجرى و يجرى. لكن الصوت هدأ فجأة.

استمر الخليل يبحث و يبحث حتى سمع صوت حفيف على الأرض .

كان أمام عينيه رجل قوى البنية أحدب الجسد قليلا . بعينيه السوداوين يحمل شرا. عمره لا يجاوز الأربعون. معه ابن فى عمر الخليل تقريبا يشهد على الواقعة.

أم الخليل تقبع أمامه هناك مستسلمة تماما تلمحه و رويدا رويدا تتكوم على نفسها.

يتطلع إليها. يشعر أن هناك أمر خاطئ لكن لا يجد عليه دليل. أمه تتألم فوق سيل من الدماء تحتها نزولا على قدميها. تملأها الجروح فى رقبتها و على صدرها. ثيابها ممزقة. و الأهم من كل ذلك أنها لم تقترب منه و لم تحتضنه كعادتها.

أقبل عليها. كانت تتحدث بثبات مصطنع زال عندما سألها بعفوية الجاهل:

-هل أنت بخير يا أمى؟

لتجيب هى بدورها:

-اذهب و احضر أباك يا خليل.

لم يتبين الطفل طريقه. أخذ يعدو و يعدو. عاد بأبيه إلى محل الحادث.

كلما تعمق خلف المقابر كلما بطئت خطوات الأب كمن لا يرغب فى الاستمرار.

بدأ الأب بإخراج خنجره. سأله الخليل ألا يفعل فالرجل بالفعل قد ذهب . لكنه الأب لم يجب.

كانت عينا الأب ضائعتان. كان يبكى. يبكى لأول مرة. و ليس أبو الخليل بالرجل الذى يبكى!

و ما أن اقتربا من محل الحادثة حتى صار أبا الخليل كالمجنون. تحرك نحو زوجته احتضنها و ارتفع صوته بالبكاء كطفل صغير غابت عنه امه.

صار الخليل يبكى لبكاء أباه و أمه و لكن لا يدرى ماذا يحدث. حتى أخرج الأب سكينه و مررها على عنق زوجته. فتناثرث الدماء لتغطى جلباب أبا الخليل تماما.

بعض القطرات كانت من نصيب الخليل نفسه. اختلطت بدموع عينيه التى كان يدرك سببها هذه المرة.

***

أخرج الخليل من أفكاره صوت علام ينادى ثنية أن تعجل بالماء.

انتبه الخليل فورا على إثر كلماته و تساءل:

-هل لا زالت الفتاة على قيد الحياة!

- و بأتم عافيه! اجاب علام.

هرول الخليل إلى غرفة الخادمات و أحضر كوز ماء. ألقى به على وجه الفتاة على الفور.

و ما إن اعتدلت فى جلستها و لمحت الخليل حتى اصابها الفزع و صارت تزحف ابتعادا عنه.

أما طاقة بدنها فلم تسعفها للهروب.

و لما لم يتمكن الخليل من تسريب الطمأنينة إليها فقد نادى ثنية و أمرها بتسريح الفتاة فور استعادتها عافيتها و رحل.

7

لم يختل هدوء البلدة و لو للحظات قليلة. يشاركها فى صمتها كل شعاع شمس و كل نسمة هواء. لا تبدو اشعة النهار قوية كعادتها. بل كأنما استسلمت و تراخت لحظة مرورها بالبلدة.

الطيور تسبح بعيدا على غير عادتها. و كانت من قبل تلتف فى اسراب فوق قباب البيوت.

الصقور يتزايد عددها. ربما تشتم رائحة الموت. و ربما تراه يحل على السفح و تنتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على فرائسها.

بطون الأطفال تلتصق بظهورهم. كأنما هم بعض أسماك.

كل شئ قابل للأكل ما دام فى متناول الأيدى، و طالما بإمكان الأسنان تكسيره و مضغه. و لم تسلم من ذلك الأفرع اللينة للأشجار. أو القطط و الكلاب النافقة فى الشوارع.

و ذات ليلة تخلل الصمت أصوات خافتة بعيدة. تناهت إلى سمع الخليل و لم يكن وحده من يلحظها، و لم يكن وحده من قرر تجاهلها.

حتى رأى صاحبه أسعد يأتى مهرولا!

و أسعد يد الخليل اليمنى و صاحبه. حل على البلدة فى سن صغيرة هاربا من أرضه. نبلا فى طبعه قرب الخليل منه ليكبرا سويا.

له شعر أسود طويل و خشن يغطى جبينه فيخفى علامة حرق نتيجة حادثة قديمة. و بدن متوسط الطول عريض الصدر.

جاء يجرى تجاه الخليل و هو يصرخ:

-الناس يخرجون يا خليل.. الناس يخرجون.

لم يفهم الخليل حديث صاحبه الذى أوضح كلماته لاحقا:

-أهل البلدة يحملون المشاعل و يخرجون.

-إلى أين؟

-يقولون إلى أى مكان يأوينا! أى محل قرب المنبع!

-أى منبع! منبع النهر!

-و هل يوجد منبع آخر!

حديث مبهم أقرب إلى الخيال. لم يبالى به الخليل. أما فى باطنه فقد كان يشعر أن هناك أمر غريب. ليس الأمر ككل مرة. و ليس ذلك بغضب يمر مرور الكرام. ليست المشاعل للاستغاثة هذه المرة. هذه مشاعل حارقة و نيرانها أعلى من المعتاد.

تحرك الخليل مع صاحبه إلى حيث الجموع. لكن المشهد ترك الخليل فى حيرة من أمره. و الدهشة تعلو وجهه.

وجد نفسه أمام جمع غفير. جمع لا ينتظر ولا يلتفت خلفه.

دب فى صدره خوف شديد لم يدرى مصدره و لكنه عاد يهرول سريعا إلى القبو، عله يجد جوابا عند الجد!

حمل الخليـل جـده على ظهـره و تحـرك بـه إلى الجمـوع الـتى كانت تتحرك فى بلادة.

وصـل بـه إلى الصـفوف الأولى و نـادى فى النـاس أن اسـمعو لأمر حاكمكم.

وقف الجد يستند بيده اليمنى على الخليل و بيده اليسرى على أسعد.

تضـئ المشـاعل وجهـه الصـبوح و تـزين خطين من الـدموع ينهمران على خديه.

تعجب الخليل دموع الجد الذى ارتفع صوته فى تجاهل لمرضـه. يتخلل صوته كحكحات متتالية:

-ما خروجكم فى ظلام الليل؟!

لم يأت الجد جواب فأعقب يقول:

-أتظنون أنكم تبقون على قيد الحياة حتى المنبع!

-أتظنون أن أجسادكم تتحمل هذه الصحراء!

لم يبدُ أن الناس يعقلون حـديث الجـد. حـتى جـاءه صـوت علّام يتحدث بعفوية الجاهل:

-الموت بانتظارنا فى السفح كذلك! ألا نموت حـتى قـرب أرض خصبة!

التفت الخليل إلى جده و همس بأذنه بكلمـات لم يتبينهـا أحـد. فاعتدل الجد يواجه الخليل و هو يقول:

-ايقاف هؤلاء الناس مناف للعقل و الطبيعة.

تنهد الجد قليلا و اعقب:

-الحقيقـة أنـنى لم آتى لأمنعنهم. بـل أردت أن اتيقن صـحة حديثك، و أرى بعينى هذه الوجوه فى هذه اللحظة تحديدا.

-ماذا تعنى يا جد!

كان حديث الجد مبهما للخليل وحده، لكنه كـان شـديد الوضـوع للجمع أمامه. و خلال لحظـات كـان الجـد بـدوره محمـولا على كتفى شاب حديث السن اسـمه علاء. شـاب سـكير . يصـنع النبيـذ فى بيتـه دون علم أحــد إلا القلائــل. لا يبيعــه لأحــد فهــو يفعــل هــذا للذتــه الشخصية و حتى لا يحمل وزر أحد آخر.

حاول الخليل معاودة الحديث مع الجد. لكنه كان هائما ضــائعا و قد انتقلت له العدوى من الجموع المحيطة.

كانت الدموع فى عينى الجد دموع تسليم إذا. كـان قلبـه يقبـل خروج الجموع و يحبه.

ضاع الجد و قد لاح أمام عينيه عمر قدره ثمانون عاماً.

تذكر المقابر و هى لا تـزال لم تجـاوز الخمسـين مقـبرة. و هـا هى الآن مئات عديدة.

تذكر اعدادها المتزايدة بكثرة مع كل وباء، و كل موجـة سـقيع. كل جفاف للماء أعقبه جفاف أبدان لم تتحمل ووراها التراب.

تذكر الليلة التى دُفن فيها ماتئ رجل و امرأة جوعاً و عطشاً.

تذكر ليلة فقد زوجته و ابنته فقرا.

هل كان هو ينتظر خروج تلـك الجمـوع حـتى يلحـق بهـا! لربمـا عاش طويلا يرى أنه مـا من نجـاة حقيقـة. و أنهم حبيسـو السـفح و الجهل و الخوف! لطالمـا تيقنـو جميعـا فى تلـك البقعـة أنـه مـا من حلــول على الأرض. بــل إن كــل حلــولهم فى الســماء. نعم! فهم الفقراء ليس لهم إلا أن ينتظـرو المـوت! و من بعـده جنـات النعيم! نعم! لقد أخبرهم شـيوخهم بـذلك! الفقـير يضـمن مرتعـا فى جنـان الرحمن! كانت هذه الفكرة تصبرهم طويلا!

فلماذا خرجو تلك الليلة! هل هى الحقيقة تتجلى عندما تتقــرح البطون جوعا! نعم ربما! و ربما هو أمر آخر!

جموع ضخمة تتحرك كأنها جراد. تحـدو حـول النخيـل المتفـرق فيفرقهم هو.

سرعتهم كاذبة نظراً لضخامة الأعداد.

لا أحد وسط تلك الجموع يفهم. و العقول ليست مغيبة بل هى حاضرة حد البلاهة.

يصعدون التلال التى كانت تبدو من البعيد كثبانا عالية . هــا هم ذا يسيرون فوقها فإذا بها أرض مستوية تماما.

القلـوب تملأهـا تناقضـات. طمأنينـة و خـوف. انهـاك و تيقـظ. سكون و صخب.

و الخليـل يحـاول الحـديث مـع الجـد الـذى كـان مغيبـا تمامـا لا يستمع إلى حديثه. حتى قرر العودة عن تلك الجموع إلى السفح فى تسليم كامل لرغبة الجد بالرحيل معهم.

****

شقشقات الصباح هلت و خمدت معها نيران المشاعل.

النهار تبدو معه الحقيقة أشد وضوحا.

يبقى الشك هو الحقيقة الوحيدة قبل أن تـأتى لحظـات كتلـك. لحظات هى اليقين.

لا يهم إلى أين يهاجر هؤلاء الناس. المهم أنهم ثارو على حـال أرضهم. و هـل نثـور ضـد الجمـادات! بـالطبع نفعـل و إلا فمـا فعلـة هؤلاء بتلك الصحراء!

هذه سعاد امرأة بغية تسكن أطراف القرية يلجـأ لهـا كـل عـابر سبيل، و كـل غاضـب على زوجتـه .تـرقص لهـذا تـارة و تـؤنس هـذا تارة ،و تلبى رغبات هذا تأرة.

لا يهم ما دام يأتيها بقوت ليلتها.

و هذا علام و زوجتـه و ابنتـه يقطعـان الطريـق فى ثبـات دون مبالاة.

و على يسار الـركب يتجمـع أطفـال القريـة. أعمـارهم مـا بين الرابعة عشر و السابعة عشر.

ماذا يفهم هؤلاء! هل يدركون حتى أين هم؟!

ربما ليس قدر إدراك الشيوخ لكنه ادراك كاف يحركهم. و ربمـا هى المتعة فقط. فهناك متعة جلية و حالة من النشوة الغير مبررة.

****

استمر السير يوم و اثنان و ثلاث. فى صحراء تمتد أمـام العين. نهارها حارق و رمالها ساخنة.

الأبدان جفت تحت حرارة الشمس. و كل طعـام كـانو يحملونـه قد انتهى.

مرت الليلة تلو الليلة حتى لمح أحد الفتية عمرانا. إنهـا القريـة المجـاورة. قريـة اسـمها الصـند محرّفـة عن السـند بالسـين بمعـنى العون. لكنها كانت كلمة رقيقة لم يقبلها أهلهـا مـع مـرور السـنين. ففخموها و أحالوهـا الصـند بالصـاد نسـبة إلى قـوة فى طبـاعهم. و أسكنو حرفها الأوسط فصارت الصنْد. كلمة مجردة قاسية و خاوية لا معنى لها.

حين وصلت الجموع كان الأمر بالنسبة لأهل السفح نجاة. فقـد تقرحت رؤسهم تحت الشمس. الماء قليل و الطعام أقل.

بيوت الصند تشبه بيوت السفح فى بساطتها لكن بنيانها أقـوى و حجارتها أمتن من البنيان الطينى لأرض السفح.

مغطاة بطبقة من الجير الأبيض . المسافات بينها متقاربة.

شهدت كنيستها المرتفعة فى منتصف البلدة – ذات لون أسـود فحمى باهت – مذبحة منذ أشهر قليلة.

كان يوم أحد و كان عرسا.

عروس بفسـتان ابيض رقيـق اسـتحال دمـا بعـد وقت يسـير. و كنيسـة صـارت ركامـا. البعض قتلتـه سـكين و البعض كـان موتـه برصاصة غادرة.

الحزن المخيم على القرية يكاد يبن شـبحا فوقهـا. قتـل رجـال العلا من قتلو عقابا. عقابا على ماذا! لا أحد من أرض الصند يعرف.

على حدود القرية كان يجتمع عدد من رجـال الصـند، يتقـدمهم رجل عجوز يرتدى عباءة لونها أسود.

له لحية كبيرة بهـا أجـزاء سـوداء تمامـاً و أجـزاء رماديـة تمامـاً ليست تخللات، بل كأنما صنعها بنفسه.

يتدلى من رقبته صليب كبير كأنما من حجمه الكبير هو السـبب فى تلك الانحناءة فى ظهره، فتود لو أنـك تزيلـه عنـه. اسـمه القس بركات.

خلفه من الشباب بعض فتـوات أو يحـاولون أن يكونـو. فأصـغر طفل بين رجال السفح يدرك أنهم لم يمسكو بعصا من قبل. أحدهم شاب شديد الحسـن. منحـوت القسـمات لـه عينـان بنيتـان غائرتـان.

تخفى غرته بشعر مبلل إثر العرق. له قامة متوسطة و جسد نحيل و اسمه نعيم.

نعيم هـو أبن القس من امـرأة لم تتخـذ دين زوجهـا دينـا لهـا فطردت من أرضهم منذ ما يقارب العشر سنوات.

سلام يعلو وجوههم و هو ما يربط هيئتهم جميعا ببعضهم .

تقدم القس بركات بالحديث يقول و هو يمسك بصليبه الكبير و يقول:

-من أنتم؟ و ماذا تفعلون هنا!

أطرق الجميع صامتون كأن على رؤسـهم الطـير. و كـل يتلفت حوله. بحثا عن الجد.

فكيف لأحد أن يجيب عن حاكمهم!

تقدم الجـد غـالب الجمـع و هـو الـذى لم يكن يـدرك أنـه لا زال حاكمهم.

اقترب من القس و قال و قد تدارك الموقف:

-نحن لا نريــد بكم اذى. فقــط نعــبر من أرضــكم إلى الجهــة الأخرى.

-ألا فلتلتفو حول البلدة. فلا نأمن دخول كـل تلـك الجمـوع إلى بلدتنا. هكذا جاء الجواب من القس.

-يا سـيدى. نحن فى الصـحراء بقيظهـا منـذ أيـام عـدة. و معنـا نساء و أطفال.

-ما أخرجكم من أرضكم؟ سأل القس و لا زال به بعض توجس.

-أصـاب البلاد جفـاف لا يبـدو أنـه ينتهى. مجـرى المـاء جـف. و الموتى صارو عشرات.

ثم أعقب مشيرا إلى الجمع من خلفه:

-أطفالنا يموتون جوعا. و كبارنا جفت أبدانهم و صارت عظاما.

التفت القس لمن حوله لكن لم يشهد فى أعينهم جوابا.

تدخل علاّم بالحديث يقول:

-يا سيدى معنا أناس لم تأكل أو تشرب منذ أيام إلا شق تمرة.

كلمات نالت من خوف النفوس فرقّت. و بـدا ذلـك على الأعين لكن القس كرر حديثه بحزم:

-لا يمكنكم المرور من هنا.

هنا علا اللغط على الناحيتين. كانت هيئة جمـوع السـفح تـوحى بما يقولون بالفعل.

فغالبية الجمع قـد جلس فى يـأس و تعب لا تسـعفهم أبـدانهم الوقوف. ينتظرون انتهاء هذا الجدل.

نادى القس يأمر بالصمت و قال فى خضوع:

-حسنا، تمـرون جماعـات قليلـة متتاليـة يفصـلها مسـافات و لا يسعكم الدخول جميعا مرة واحدة.

بدا ذاك الخيار جيـدا. و ربمـا هم لا يملكـون إلا الموافقـة. على الجانب الآخر كانت بيوت الصند و أبوابها تغلق باحكام.

و من فـوق الأسـطح القريبـة كـان أهـل البلـدة يتطلعـون لا يفهمون و ربما يفهمون ولا يدركون.

خوف تزيد من حدته حقيقة أن أبـوابهم الـتى يختـبئون خلفهـا أبواب قديمة هشة.

على طول القرية تلمح بابا أسود من مسـافة لأخـرى، كأنـه تم طلاءه بالسواد حديثا.

تساءل الجد:

-ما بال الفحم على الأبواب!

أجاب القس بركات:

-أنه الموت.

و أعقب:

-هذه البيوت التى فقدت أحد أفرادها فى حادث الكنيسة.

تعجب علام وتساءل فى عفوية:

-و لكنها تقريبا كل البيوت!

كلمات أعقبهـا صـمت حين أدرك علام قسـوة مـا ألقى بـه من كلمات.

دقت اجراس الكنيسة الضخمة و مع اقترابهم منها أكـثر تظهـر اثار دماء قديمة. ما أعطى صورة حية و تخيـل واضـح لكلمـات القس فى أول المدينة و سر ذلك الوجوم الذى يعلو الوجوه.

تحرك الجد مع علام إلى الكنيسة. ومـا إن خطـا خطوتـه الأولى حتى أسره ما رأى.

تعلقت عينيه بالسقف الذى كـان آيـة من آيـات الجمـال. لم تـر عيناه مثل ما تراه الآن. سقف مزدان برسـم لأجسـاد عديـدة بعضـها يلتحف برداء حريرى لونه من لون النبيذ الأحمر. و البعض الآخر كـانو أطفال عارين تخرج من ظهورهم أجنحة بيضاء.

أما فى الأسفل فكان الخراب. ألواح خشبية ملقاة هنا و هناك. و مقاعد مكسـورة و اثـار طلقـات رصـاص ببعض الحوائـط. علامـات الدماء حول محل الطلقة كلوحة فنية.

-من قد يفعل هذا! تساءل الجد. و أعقب:

ألا لعنة الله على أهل العَلا!

ما إن شارف الجمع على الخـروج من القريـة حـتى تجلت أمـام أعينهم الصحراء مجددا. صحراء كبيرة ممتدة يملأها النخيل المتفـرق و بئر ليس ببعيد محفور على بعد ليس بكبير.

يقولـون أنـه البـئر الـذى بـنيت حولـه بلـدة الصـند منـذ مئـات السنين. و لكن لم يخرج منه الماء منذ سنوات عديدة.

جلس الناس و كانو بحاجة الراحة فمـع قـرب مغيب الشـمس و مع وجود بلـدة تحمى ظهـورهم من بـرد الصـحراء. كـان هـذا أنسـب مكان ووقت للراحة.

أمر بدأه الأطفال الذين صارو يصرخون أن تعبنا.

لا يغير قوانين الرجال إلا أطفال أو نساء. يرقق وجودهم عالم الرجال الجاف الموحش.

من النخيل حولهم قـامو بحطب الخشـب و إشـعال دوائـر نـار. النساء فى المنتصف و الرجال فى دوائر حولهم يطوقونهم.

هدوء لم يطل. و إذ فجأة كانت الأرض أسفلهم كأنما تهــتز. إن تنظر إلى البعيد لا ترى شيئا و إن تدقق النظر أكثر ترى كأنما ضباب هناك أو سحابة من الرمال. جمـوع تقـترب مـع اقترابهـا يتضـح أنهـا ليست بالجمع القليل.

أستقامت قامات الرجال. و بـدأت الأرجـل تتحـرك فى دفاعيـة إلى الخلف.

الأطفال يلتفون خلف أمهاتهم يحتمون بهم.

تقـدم الرجـال إلى الصـفوف الأماميـة هنـا بـدأ دوى الأحـاديث ينتقل، تسلمه مجموعة لأخرى حتى صـار الكـل يعلم أنهم الآن أمـام رجال العَلا!

رجال يرتدون أقمشة من الخيش لونها رمادى يحملون العصــى و الأسلحة البيضاء و يتوشحون بشيلان حول وجوههم.

صار الجد ينادى أن امسكو. كانو يتوقعون جميعـا خـروج رجـال العلا عليهم. و لكن ليس بهذه السرعة!

احتكـاك كـان ولابـد أن يحـدث. بـدأ بحـديث بين قائـدهم و بين الجد. الذى بدا و كأنه الوحيد الذى يدرك تماما لما يحدث!

نعم فحتى الآن الكثير و الكثير لا يدرك بعد مـا هم فيـه. البعض كان يرى الأمر حتى تلك اللحظة على أنه مزحة.

كان قائدهم يتقدم عنهم . يرتدى حلـة بنيـة فـوق ثيابـه و خـف من الجلد فى قدميه. و حول وسـطه يلتـف ربـاط من الجلـد مائـل ، يتدلى منه سنجتان. طويل القامة . عريض المنكـبين. ذو وجـه مربـع أسمر و عينان منتفختان.

له قسمات غاضبة و عينان تشتعلان. كان اسمه حادر السيَّد.

أحد اللذين تغيرت أسماؤهم بعد قانون أرض العلا منذ سـنوات. قانون لم يمنع فقط الكسر فى الأسماء. بل كذلك منـع الدونيـة فى المعنى. فتحول من حيدر الضبع إلى حادَر السيد.

قال حادر بصوته القوى و جسده الثابت:

-لم أظن الحديث صحيحاً. ظننتها..

و أعقب يقول فى استهزاء:

-ما سيركم تجاه أرض الأشراف؟

جاء الجواب من الجد نفس الجواب:

-لا نريد بأحد أذى!

تطلع حادر حوله يقول فى سخرية:

-بالطبع لا تفعلون، حتى و إن رغبتم!

قـال حـادر السـيد كلماتـه و هـو يشـير إلى الرجـال من خلفـه بالتقدم!

و مع أول مقاومة من شاب لم يجـاوز السـتة عشـرة عامـا فى صفوف السفح الأولى. بدأ ضرب وحشـى لم تتداركـه الجمـوع الـتى بدأت تتراجع فى خوف.

بدا الأمر فى البداية غير طبيعى و الصفوف الخلفيـة لا تصـدق ما تراه بأعينها. متجمدة فى أماكنها تنتظر مصيرها المحتوم .

رغم وجــودهم الجلى إلا أن أحــدا لم يتخيــل ذلــك الاشــتباك الوحشى. رجال حادر يضربون كأنهم يلقون بأحمال الماضى على ما يقابلهم من الأجساد.

تـأخر مصـير الصـفوف الأخـيرة من مقاومـة البعض. مقاومـة مشروعه أعطت فرصة لهرب الكثيرين.

الأتربــة المتصــاعدة من حركــات الكــر و الفــر أصــابت البعض بالاختناق أثناء التدافع .

أصبحو فى النهاية كسرب طـير ألقيت فى قلبـه حجـراً فتنـاثر بأعجوبة و صار المنتصف فارغاً تماماً، إلا من بعض التجمعـات هنـا و هناك.

شاب يلتـف حولـه بضـع رجـال يعملـون فيـه أيـديهم و أرجلهم كأنهم فى ثأر شخصى معه. مشهد تكرر على مسافات عدة.

الكل يهرب. بعض الـبيوت الصـند فُتحت و اسـتقبلت النـاس. و بعض الأشجار و المنحنيـات خلـف بيـوت أخـرى كـانت مكانـاً مناسـباً للاختباء.

كان الجرى بعيداً هو خيار آخرون. و لكن خلال وقت قصير كان الكثير من الجرحى و القتلى يغطون رمال الصحراء بين أرض الصــند و بئرها فى صورة حزينة يرجف لها البدن.

فى ساحة تملؤها الأتربة و أصوات الاصطدام بين العصى و الأجساد. عويل و آهات.

بدا أن رجال العلا قد تركوا ضحاياهم و اختفو. كأنما لم يكن لوجودهم وجود.

تتأمل هدوء هذه الأرض فيكذب هدؤها الغبار الذى لا زال متناثرا بالأجواء. كأنما تأبى إلا أن تكون شاهدة عليهم.

بيوت الصند مغلقة ببنيانها الهش و حجمها الصغير. مغلقة بإحكام خلف كل من استغاثو بها. اجراس الكنيسة الكبرى تدق معلنة عن المصاب الجلل.

دماء متناثرة. جثث و جرحى يعلوها أتربة عادت تستقر على الأرض رويدا رويدا لتصنع طبقة رقيقة من البياض فوق أجسادهم القتلى.

***

وصل الخليل و معه أسعد إلى مشارف الصند، التى كان المرور خلالها سلسا. يتساءل و أسعد إن وجب عليهما من البداية التحرك وسط الجموع و دون تفكير.

هل كان الخليل بحاجة العودة للسفح للتيقن أن تحرك أهلها كان هو الصواب.

هل وجب عليه تأمل حالها و الظلام المخيم فوقها.

أم أنه لحق بهم لأمر آخر لا يدركه بعد!

مر الخليل و أسعد على القرية المكلومة. يتأملان هدوءها الغريب! ألا يخرج إليهم رجل يسألهم عن سبب وجودهم!

ألا تحوى طرقها شيخ أو شاب جافاه النوم يسبح فى الطرقات!

لم تطل دهشة الخليل طويلا. فعلى أعتاب نهاية البلدة رأى كل شئ بأم عينيه.

لمحت عينيه أبدان ملقاة على الأرض. أبدان يألفها. لكن ليست ألفة الملامح و لكن ألفة الروح.

تمنى أن ما مر بخاطره ليس إلا فكرة غريبة، و ستزول حين يتيقن أنه لا يعرف أى من تلك الجثث!

دنا يتأمل الجرحى. و يرغب بعضه بالتراجع، و الاختباء خلف أحد الأبواب.

كلما اقترب من أحدهم و نفض الغبار عن وجهه ارتـد. لا تأخـذه قدماه إلا تجاه الجثث. صار يدور بينها. يتأملها فقط.

يألف كل الوجوه . و كيف لا! بالطبع. إنها وجـوه أهـل السـفح. فتيانا نشأ يراهم كل يوم. عدد محدود من الصبية فى بلـدة لا يجـاوز تعداده الآلاف القليلة. شعر بوخزة فى صدره كونه مضـطر لأن يـرى كل تلك الوجوه.

جثة وحيدة بين تلك الجثث كان يألفها الخليل ألفة أكـثر بقليـل من ألفة الملامح.

دنا ثم أبتعد مجددا يبتغى جثة آخرى. كأن بدنه يـأبى إلا الابتعـاد عن ذلك الشاب بالذات. و لكن ناداه أسعد:

-يا خليل! ادنو يا خليل!

كـان الصـوت يمـتزج بنحيب فـتيقن الخليـل أن مـا رأه كـان صحيحا! انه هو!

اقترب و هو يدرك أن لا مفر. دنا و جلس إلى جواره. لم يرجف و لم يبك.

تأمل حبيبه. تأمل وجهـه و ملامحـه البسـيطة. ملامح لم تلوثهـا تجاعيد بعد. فكأنما لم يُبد حزنه يوماً و لم يضحك يوماً أيضا.

جلس يحتضن رأس أخيه فى حجره. يهدهده يمنة و يسرى.

تضيع عينيه فى العدم و هو يتساءل:

-هل تأخرت عليك يا علّى؟ لم لم تنتظـر خـروج أخيـك معـك يـا فتى!

ضياع ختمه الخليل بصراخ شق الصدور.

***

صـراخ و نحيب لم يتنـاهى الى سـمع أى من أهـل السـفح من قبل. هذا هو الخليل و هذا صوته. لكن هذا الأنين! لا، لم يسـمع أحـد من قبل أنين الخليل! لم ير أحـدهم من قبـل انكمـاش وجـه الخليـل حزنا كأنما ذاق علقما.

يجتمع فى وجهه مرارة الفقد مع ضياع الغـير مـدرك! او الغـير مبالى!

لم يكن يعلم إلى اين يذهب و يبكى أخاه.

حتى وجد يد الجد تربت على كتفه. لا يسعه الجلوس إلى الأرض. يسأل الخليل أن يرفع قامة علّى له فيحتضنه.

حمل الخليل أخاه و قربه من وجه الجد. قبل الجد حفيده و بكاه حتى آلمه قلبه الضعيف.

***

التف أهل السفح حول الخليل يبكون علّيا و يبكون موتاهم. فرغم قسوة الخليل كان وجوده بأسا و عونا! و رغم خوف أهل السفح من الخليل أعواما، إلا أن نبلا فى طباعه و شدة فى عزيمته جعلت الطمأنينة تجتاح الصدور مع ظهوره. أعطاهم ذلك الشعور متنفسا للحظات علهم يودعون موتاهم و يدفنون جثثهم بالطريقة اللائقة.

سبعون رجل و امرأة تم دفنهم فى تلك الليلة. حفرة واحدة واسعة و عميقه اجتهد فتية الصند فى حفرها مراعاة لحال أهل السفح.

تم زج الرجال و النساء و تكويمهم فوق بعضهم البعض حتى امتلأت الحفرة تماما ثم انهالو عليهم بالتراب حتى صار مدفنهم له قبة واضحة مرتفعة عما حولها.

الجرحى تم نقلهم جميعا إلى بيت العم أيوب و هو حكيم الصند. رجل عجوز ممتلئ الجسد ذو وجه مترهل بشدة كأنما كان وزنه اضعاف ما ترى لكن فقده كله دفعة واحدة.

يملك بيت بسيط تحوطه الدكك بشكل دائرى. عليها مفارش ملونة و معلق على الحوائط أقمشة مزخرفة تصنع صورة جمالية ترقق من قسوة الحائط الطينى.

امتلأ البيت بقسمين يمنة و يسرى. أما اليمين فكانو ثلاثون امرأة و طفلان خلف ستائر صنعها أسعد بملاءات قديمة جمعت من زوايا البيت. و أما النصف الآخر فكان ما يربو على سبعين رجلاً.

***

ليلة طويلة قاسية و نهارها التالى كان أطول و أكثر قسوة.

ترى الحزن بأم عينيك فوق أكتاف الرجال و النسوة و حتى الأطفال. أما العجائز فيكادون يقبلون الأرض حزنا.

هل كان الأمر متوقعا! نعم، للحظات قليلة علم أهل السفح أنهم سيشتبكون مع رجال العلا! و لكن لم لم يتوقع أحد الألم الناجم عن الأشتباك! و لم لم يبدو الأمر قبلا بتلك الصورة و ذلك الألم المميت.

كل رجل يخشى أن يلاقى عينيه بعينى رجل آخر.

الأجساد تحنو على بعضها و الأيدى ترتفع فوق أكتاف عشوائية تربت عليها دون النظر. لا يبالى رجل إن كان يربت على كتف غريمه أم كتف صديقه. فقط الجميع يربت على أرواح الجميع.

***

مع اقتراب غياب نهار الليلة التالية، هلّ القس بركات يتوسط الكثيرين من أهل الصند اللذين تجمهرو بناءا على أمر منه.

تجمهر ساد الصمت فيه وقتا طويلا. و لسان القس يعجزه أمام الجثث و الجرحى. فى النهاية التفت عنها يخاطب الخليل :

-قد حان وقت رحيلكم.

كلمات كانت أشد قسوة من تلك الليلة! إلى أين يرحلون؟ و كيف! ماذا عمن تركو من جرحى! ماذا عمن وارووهم التراب! ألا يبقون إلى جوارهم ليلة واحدة أخرى!

-نرحل غدا على أية حال.

قال الخليل فى عجز و تسليم كانا أيضا غريبين عليه! كان لسان الخليل و بدنه يستنجدان بغيره للمرة الأولى

-بل اليوم.

قال القس بنبرة حادة كأنه كان يعلم الجواب و أعقب:

-الآن إن أمكن ذلك!

و كيف يسع هؤلاء التحرك! قـال أسـعد فى غضـب مشـيرا إلى الجرحى داخل بيت العم أيوب.

-بإمكانهم البقاء. أجاب القس بركات و أعقب:

-نرعاهم و ما إن يصّحو يلحقو بركابكم.

-و لكن..

-دون لكن. فلترحلو من هنا سالمين و يكـفِ مـا قـدمتم بـه من شر.

هنا بدأ لغط بين صفوف أهل الصند أنفسهم. أعقبه تدخل نعيم يقول بصوت حزين يائس:

-أى سلام يا أبتاه! نهره القس آملا أن أحدا لم يسمعه.

لكنه الفتى أكمل:

-أى سلام بعد خسـارتنا! هـل نـتركنهم لنفس المصـير.و بلـدتنا هذه لم يطب بعد جرحها!

أمر القس نعيم أن يصمت . لكنه لم يفعل بل رفع صـوته و علا وجهه احمرار شديد يقول :

-أيحدث أكثر مما حدث!

هنا نزل القس بصليبه على وجه نعيم بضـربة فجـرت الـدم من رأس الفتى ليتزايد اللغط بين صفوف العلا فى رفض لحـديث القس بركات.

يُـذكر أن هـذه القريـة لم تعش حادثـة الكنيسـة فقـط و لكن استيقظت أهلها ذات يوم على صـرخات كـانت مكتومـة فى البدايـة. صرخات شديدة تخرج من بيت صغير فى أول البلدة.

أنين لرجل ينادى أن يا ولدى! حين وصل إليه أهل البلدة وجـدو أربعة شباب. حول رقبة كـل شـاب منهم يلتـف حبـل نهايتـه معلقـة بسقف الغرفة.

تعلو وجوههم دماء. و الكثـير من علامـات غريبـة صـنعها خنجـر حاد بالتأكيد.

لم يعرف أحد لماذا قتل هؤلاء الفتية أنفسهم. لكن ورقة صغير فى كفة يد أحدهم شرحت كل الأمر.

كان الورقة مكتوب فيها:

-قد نحتنا على وجوهنا تجاعيد العجز كل فى أماكنه الصحيحة. فلا تحزنو علينا. قد عشنا قدر مستطاعنا فى بلدة لم نتمكن من صنع شئ لمستقبلها. و لم نتمكن من حماية حاضرها قط!

ايقظت كلمات نعيم جرح لم يبدُ أن القرية قد نسيته. كلمات اشتد معها اللغط. طرف يرغب فى ابقائهم و طرف يطلب رحيلهم إلى أن أخرجهم من جدلهم نداء أحداهن أن بسم الصليب! بسم الصليب!

كانت امرأة عجوز سمينة و لكن تشعرك عظام أكتافها البارزة غير ذلك. لها بطن سمين و أرداف ممتلئة.

-ماذا يحدث؟ سأل القس بركات. جاءه الجواب من المرأة تصرخ أن البئر قد أخرج ماءا.

البئر الذى كان قد جف منذ سنوات. مما اضطر أهل الصند الأعتماد على المجرى البعيد عنهم. كان ذلك الأمر أشبه بمعجزة.

و لكن كان الأمر الأهم أن تهليل المرأة لم يتوقف عند تلك الكلمات بل أعقبت تردد:

-إنها فتاتكم. إنها فتاتكم!

كانت المرأة تشير بحديثها إلى فتاة، تقول أنها رأتها الليلة الفائتة تصلى عند البئر.

و خلال لحظات كانت العجوز تمسك بيد احداهن و تمسح على رأسها و تقبل يدها المباركة!

كانت تلك الفتاة التى احتفى بها أهل الصند جميعا خلال لحظات هى ليال!

9

ذبـائح عديـدة. نـار و شـواء. حلقـات يملأهـا الـدفء و امتلاء البطون.

ليلتان من الهدوء أعقبت خروج الماء من البئر. حينها لم تسمح نساء القرية و عجائزها بخروج الركب من القرية لكرامات ليال.

ليلتان تمسح فيهمـا ليـال بيـدها على الذبيحـة، رغبـة من أهـل القرية فى أن تحل بركاتها على طعامهم.

لم يعلمو أن ليال خرجت قبل بليلـة إلى البـئر فقـط لتتأملـه و هى التى لم تر ما يشبهه من قبل.

حقيقة أرادت إعلانها للجميع و لكن لم تواتيها الفرصة أبدا.

ليلتـان كـانت فيهمـا ليـال -الـتى خـرجت تتسـلل بين الجمـوع الهاربة من السفح- تشعر لأول مرة أنها ليست بحاجة الاختباء و أنها ها هى ذا تشعر ببعض طمأنينة.

صار لها كرامات تحميها من أهل السفح أنفسهم.

بعد ثلاث ليال كانت الأمور قد هدأت و استقرت. صار بإمكان كل مكلوم لملمة جرحه و التحرك.

أستعد أهل السفح قبيل الفجر للخروج من الصند. لكنهم لم يخرجو وحدهم تلك الليلة.

كان يتخلل الجمع أفراد لا يشبهون أرض السفح بل يشبهون أهل أرض الصند.

أفراد متباعدون بدوا فى البداية قلائل و لكن اتضح كبر عددهم مع الوقت.

لماذا خرجو خلفهم!

هل أصابهم ما أصاب السفح؟

ربما!

لماذا خرجو وسط جموع تبحث عن عمران و ماء؟ ألا يملكون هم قوت يومهم و الآن صارو يملكون بئر قريب! فلماذا خرجو!

أم أنها تلك النشوة! تلك الشرارة التى تجتاح النفوس ولا يدرى أحد لها سببا!

أم أنهم يخرجون فى ثأر شخصى مع العلا! ربما.

***

كان السير هذه المرة ثير مثقل. مثقل بأرواح الموتى المحلقة فوقهم كسحابة. كان الثقل ثقل دماء تركوها خلفهم. غابت فأفجعت برحيلها الكثيرين.

و أمام أعينهم الصحراء قاسية و مخيفة. وحشتها تنبه عقلك بحثا عن الأمن. و يجعل من الطمأنينة رغبة ملحة.

حرارة شمسها نهارا. ثعالبها البرية ليلا. مرتفعاتها الصخرية. حتى نجومها و سمائها صارت بعد أيام عديدة من السير مصدر خوف، أكثر من كونها ساحرة.

أيام عديدة. يحسُبها الجميع بدقه شديدة أثر التعب. فكل يوم يمر كأنه عام. يُقال أن هذه الصحراء الواسعة كانت عمرانا فى يوم من الأيام. و أنه كانت هناك أنهارا و وديان و خضرة. لكن اضطراب فى الطبيعة أحالها خراب. و دفن مدنها.

كان الجمع قد بدأ يتفرق تاركين مسافات بين كل مجموعة و أخرى. مسافات صنعها اتساع الصحراء الشديد رغما. و لا داع اذا للتكدس فى هذا الحر الشديد.

النهار بشمسه الساخنة لا ينتهى. و الليل يمر سريعا لكن مخيفا مع أصوات الذئاب تحوط المسير من آن لآن.

و لما كان طعامهم و شرابهم الذى خرجو به من الصند قد انتهى، فقد أصبحت الأعشاب على الطريق تُنتزع و تؤكل.

فكرة العودة لا تمر على خاطرهم. و لكن لم يكن الأمر بإرادتهم هذه المرة. فقد صارت أرض الصند خلفهم بأميال بعيدة.

البعض استسلم. و الكثيرين فكرو. أما الخليل فقد كانت موجات السراب تتهادى أمام عينيه. الحرارة الشديدة قد جعلت هذه الأمواج مرئية بعينى الكل.

كل يظن على إجهاد بدنه أن الموت قد حلّ.

يزيد من عبثية المشهد، صقران يحلقان فوق الجمع المتفرق. و إن كانا مماثلان لصقور عديدة قابلها الجمع بالطريق لكن صياحهما شديد مخيف.

إلى أن بدأ أخيرا يحول بين امتداد السماء و امتداد الصحراء الذهبية مدينة خضراء تشبه الجنة. لا بل هى الجنة. تظهر على مرمى البصر. نشطت الابدان قليلا إثر رؤيتها .

مع التحرك تظهر تفصيلاتها أكثر و أكثر. بيوت منفصلة و حول كل بيت مساحة خضراء مستقلة. و حول كل مساحة سُوَر يحدها من كل الجوانب.

بدا أن الناس يهيمون سكرا. و يتحركون فاغرى الأفواه.

ربما لم يظنو أبدا أن الفارق بهذه الضخامة. صحرائهم المقفرة فى السفح بلونها الذهبى القاسى ، أمام حياة ذهبية و لكن ليست لونا بل عيشا.

الأرض من تحتهم لم تكن رمالا بل طريق ممهدة من صخور مدكوكة و مستوية .

كان شعور بالانتصار و الامتنان يملأ الصدور.

فقد وصلو أخيرا إلى البلدة التى تسبق المنبع. لقد وصلو إلى أرض العلا!

***

كانو كأنهم بحلم ولا يصدقون. لكن الحلم لا يمكن أن تحويه كل هذه المشاعر . ما يحدث بدواخل الناس أكبر من معنى حلم. فللنفس محدودية لا تتحمل ما هو أكثر منها.

لكن لم تستمر هذه النشوة طويلا. ما كاد الجمع يشهد هذه الجنة و يتيقن وجودها حتى أنهالت فوق رؤوسهم أصوات مدوية لطلقات رصاص.

فى البداية بدا أنها أصوات انفجارات بعيدة لكن مع سقوط رجل تلو الأخر بطلقات تخترق صدورهم صارت الصورة أكثر وضوحا.

بدأ الجمع فى التفرق يمنة و يسرى. لكنها الصحراء. لا مكان للاختباء. فقط العدْو بعيدا هو المفر الوحيد.

صفوف من رجال العلا. يشبهون أولئك الرجال الذين خرجو على الجمع أمام الصند. لكن يتسلحون ببنادق على اكتافهم. و لهم هيئة أكثر بأسا و تهذيبا.

لم يكن من مفر للمواجهة. و مع نداء الخليل أن أمسكو، صار الرجال الهاربون يقتربون و يجتمعون و رويدا رويدا. و كف الجميع عن الهرب.

هناك لحظات يستبله الناس فيها أمام الموت. كانت هذه إحدى تلك اللحظات. ربما كان الغضب سبب هذا الثبات.

ربما علمو يقيناً أن هناك طريقة أخرى للعيش غير تلك التى عاشو بها أزمانا. ربما لم يكونو بحاجة التحمل سابقاً. و ربما إن ماتو و دُفنو ها هنا أمام تلك الجنة و فى سبيل مثيلتها، ربما حينها فقط يكون هذا الجمع قد عاش.

يلوِّح رجال العلا ببنادقهم و عصـيهم فى الأبـدان. و بأقـدامهم فى الوجوه.

بعض الطلقات تلوح حولهم فى الهواء و بعضها يخترق الأبـدان و يخرج من الجهة الاخرى. تاركا خلفه جرحى و صرعى.

بدأ الجمع يصحو و يتدافع. الخلف صار مستقر هادئ و معظمـه من النساء تُهلل أن أمسكو. لا يهربن و إنما يتراجعن تاركين مساحة للصفوف الأمامية التى كانت من الرجال و الفتية. فتية يتقاتلون مع رجال العلا فى مشهد حاد.

ينفضّون من مساحة و يتجمعون فى مساحة أخرى.

الموت أمامهم و لكن لا أحد يبـالى . صـارو يعلمـون أنـه ربمـا- على هزالـة أجسـادهم و تلـك النـيران المفتوحـة عليهم- لن يتبقى منهم رجل حتى نهاية اليوم.

حتى كان أن خـرجت طلقـة وحيـدة طائشـة و لكن مسـارها لم يكن تجاه أهل السفح. بل كانت تجاه أرض العلا.

رصاصة من بندقية استولى عليها أسـعد و أطلـق نيرانهـا تجـاه أرض الأشراف. لتصيب إحـدى طلقاتهـا العديـدة رجـل فى إلى أحـد البيوت الفارهة خلف رجال العلا.

طلقة وحيدة أودت بأحد أعيان العلا المحتمى بقصره.

طلقة هدأّت من كثافة النيران و انهتها خلال ساعات قليلة فى مشهد عبثى أقرب إلى الدعابة منه إلى الحقيقة.

10

هل كان الخروج أمر جـاد أم هى رفاهيـة؟ هى حـرب! نعم هى حرب. حرب بين طرفين يملكان نفس المنبع . منبع للكل أحقية به.

حرب فى تفصيلاتها جادة للغايـة، و لكن هـل مبـدأها هـو شـئ غير رفاهية جانب على حساب قحط آخرون.

مرت ليلة و أخرى. يتزايد عدد الموتى كل دقيقة إثر نزف أنهك أجسادهم.

حفر أهـل السـفح مسـاحة أخـرى ضـخمة. أكـبر من تلـك الـتى تركوها فى الصند. تلمح عينيك اتسـاعها فتظن أنهـا بعض تعريجـات الصحراء.

دفنــو فيهــا ثلاثمائــة و ســبعون نفس. كــان الرجــال يجــرون الأموات جرا إلى الحفرة. لم تعـد بجسـد أحـدهم الطاقـة لحمـل كـل جثة على كتفيه بطريقة تليق بالموتى.

موتى كانو غرباء هذه المرة. بعضهم من السفح و البعض الآخر من الصند. حتى أن بعض الجثث كانت لجنـد العلا أنفسـهم. تم زجهم و تـركهم وسـط بقيـة المـوتى فى لا مبـالاة و عدميـة تحلـق فـوق المشهد.

لم تكن العلة علة بدن قد قَطَعَ الصحراء ببطن فارغة. بل كانت العلة علة روح لم تتحمل المصاب.

كان الحزن هـذه المـرة يسـيطر على كـل قلب. فكـل فـرد قـد خسر صاحب أو أخ أو ولد!

أعداد مهولة تغطى الصحراء أمامهم.

كـانت من الممكن أن تتحـول لألـوف مؤلفـة لـولا – لسـخرية القدر- أن توقفت المذبحة فقـط لأن رجـل واحـد من الأعيـان اردتـه رصاصة خاطئة. رجـل واحـد من العلا كـان لـه الفضـل أن تبقى تلـك الألوف أحياء ليلة أخرى.

كان ذلك الرجل هو أحد أعيان العلا و أغنى أغنياءها. خــرج إلى شرفته يتأمل -و أهله- تلك المسرحية المقامة على حدود أرضيهم.

و لم لا! فـأعينهم لم ترصـد مثـل هـذا الشـئ من قبـل. بعض الزعران و البرابرة يظهرون أمام بلدتهم فى ثياب مهلهلة و أجسـاد منهكة. و يرغبون فى المرور خلال أرضهم إلى منبع النهر.

***

صار النهـر قـريب مـا أعطى الجمـع الفرصـة للـتزود بالمـاء. و بعض الطعام.

أما الصحراء نفسها فلم تـرأف بهم. حبـات الرمـال المتطـايرة تنبئ بقدوم عاصفة.

-إنـه ليس موعـدها. قـال نعيم نافيـا إحتماليـة أن تكـون هـذه عاصفة.

لكنها أتت على أية حال. هكذا هى الطبيعة متقلبة متباينة. كـل شئ يتغير. لا يمكنك توقع أمر الرياح أو الأمطار أو الحب أو الحــرب. أو ما يدور فى دواخل النفوس.

لا يمكنـك توقـع فعلـة الأغصـان ووقت هـروب أوراقهـا منهـا محملـة على الـريح، هاويـة إلى الأرض ،و قـد اختـارت أن تفلت و لا تبقى معلقة بغصنها.

بدأت العاصفة تظهر رويدا رويدا على مرمى البصر.سـحابة من الغبار كمـوج بحـر شـديد الأرتفـاع. تشـعر أنهـا إن لامسـتك سـترفع قدميك عن الأرض، و تستمر برفعك فوقها حتى تلامس يدك السماء.

رجال المالك ينسـحبون من الحـدود و قـد كـانو قبلا قـد صـنعو بأجسادهم عازلا بين أرض العلا و بين رجال الجمع.

أمـا أهـل السـفح و الصـند فقـد أختـبئ من أختـبئ منهم تحت الخيام الـتى دقت فى سـرعة و الـتى لم تسـتوعب إلا نصـف الجمـع الموجود.

بعض الخيم كـانت تثبت باجسـاد الرجـال الجالسـين عليهـا من الداخل تاركين النساء مكومات فى المنتصف. أما بقية الجمع فكانوا

يهربون فى عفوية اشـترطتها عليهم اللحظـة و قـد كـانت أعـدادهم خفيرة، رغبة فى الاحتماء خلف أسوار أرض العلا الشاهقة.

عاصفة من شدتها كان المرء يشعر أن روحه تنسحب مع اتجـاه الـريح نفسـه . كأنمـا أنفاسـك تتحـرك مـع العاصـفة و الرمـال و أن صدرك يفرغ من الهواء و أنـه يكـاد ينطبـق على نفسـه. الأمـر الـذى كان أشبه بخروج الروح. هل هكذا يا ترى يكون ألمها!.

***

انحسرت العاصفة و التى كـانت فى سـوءتها أشـد ممـا مـر بـه أهل السفح فى كل الأيام السابقة.

عاصفة تحمل معها الخـوف و الجـوع و العطش و الألم. يجتمـع فيها المساؤى الخمس و يستمر ذلك الحال ليلتين فتكون فى شدتها كأثر فقدانك أحدهم لصالح الموت.

هدأت العاصفة خلال يـومين. و فى صـباح اليـوم الثـالث كـانت السماء صافية أكثر من المعتاد. و كأن هذه العاصفة قد أخـذت معهـا كل الضباب. فصارت رؤية السماء واضحة.

خرج رجال الجمع من بين بيوت العلا التى حاولو الاحتماء خلف أسوارها. خرجو فى جماعات و الأسلحة مصوبة إلى رؤسهم.

أما المـوتى و الجـرحى الـذين لم يتحملـو فعلـة العاصـفة فقـد خرجو محمولين على أكتاف أصحابهم.

و من بين هؤلاء الجرحى كان الخليل محمولا على كتفى أسـعد و نعيم. و الرجلان يظنانه جثة هامدة على إعيائه الشديد.

خرج الرجلان بالخليل فورا إلى الخيام التى اعدت للجرحى فى لحظات. تشرف عليها بعض النسـوة المتعلمـات و على رأسـن ليـال المباركة.

أما الخليل فكان كأنما يقف على شعرة يخطو عليها و يتمايـل. فى نزاع بين الحياة و الموت. نزاع أشبه بتلك النزاعات الـتى ينتصـر فيها الموت غالبا، و إن انتصرت فيهـا الحيـاة فلا تعـود نفس الحيـاة التى يعرفها المرء.

بدن لا حول له ولا حيلة. تبـدل إن يحـدث لرجـل كالخليـل فإنـه قادر على جعل ألد أعداءه يسامحه. و يجعل أكثر مبغضـيه كرهـا يمـد يده بالعون.

أمر لا تفسير له. و كذلك كـان جلـوس ليـال إلى جـوار الخليـل الذى غاب عنه وعيه و لم يعد. تجثو إلى جواره تارة و تبتعد تارة.

لزمت جانبه بعد محاولات عدة لتجاهل إعياءه.

تتطلع إلى عينيه المستسلمتين. تمد يدها المرتعشـتين إليـه. و تحاول تغيـير ضـمادات رأسـه. لا زالت تهابـه حـتى و هـو راقـد على حافة الموت ..

***

ليلة قاسية على الجمع بأجمعه. كان كل الموتى و الجرحى فى كفة و رقود الخليل فى كفة أخرى.

ذلك الرجل الذى يحمل من البأس و الشدة مـا يبعث الطمأنينـة فى كل النفوس المحيطة.

كان رقوده يؤكـد شـدة مـا يمـر بـه الجمـع. و كـان الخـوف من رحيله خوف أقرب لخوف طفل ألقيته فى الصحراء دون أب!

فى الليل اشتدت الحمى على الخليل. اسـتمر هذيانـه و جـافى النوم عينا ليال. حاولت هى بدورها أن تخفـف من أثـر الحمى. بللت وجهـه و جسـده بالمـاء أكـثر من مـرة. و لكنـه لم يتحسـن بـل زادت حرارته و هلوساته و هو يكرر:

-أماه!

فاجأها وجود نعمات التى جلسـت إلى جوارهـا . جافاهـا النـوم كذلك.

-قلبه معلـق بأمـه. قـالت ليـال و هى تبحث عن جـواب لهـذيان الخليل.

-السيدة ليست أمه. قال نعمات و هى تقص عليها قصة الخليل و أمه التى ماتت على يد أبيه فى حادثة من حوادث الاغتصـاب الـتى كانت منتشرة حينها بيد رجال العلا!

و أعقبت تتساءل:

-ألا ترغبين بالنوم! تمددى قليلا فقد شحب وجهك إعياءا.

و ما كادت ليال تتحرك فى استماع لنصح نعمات حتى وجدت يدا تمتد إليها و تتشبث بها. كان تلك يد الخليل الذى عاد بعض وعيه إليه ثم غاب عنه مجددا!

11

للبدايات قدسية و للنهايات قدسية. لكن ماذا عن تلك الحالة التى تسبق البدايات و لها عبق ما بعد النهاية! و ماذا عن الريح المحملة بنسمات باردة! ماذا عما يجتاح صدرك من يقين أن هناك شئ مختلف. شئ غريب. بداية جديدة، لا تستدل عليه بالحواس .أما العقل ففى سكره.

سد مصنوع من رجال العلا. يفصل بين جموع السفح و أشراف العلا! سد من ثلاث صفوف متتالية، كل صف هو سلسلة طويلة تمتد كفاصل بشرى بين أرض العلا و رجال السفح.

السماء صافية و سرب من الطيور يتمايل فى السماء مبتهجا كأنما يرقص على إيقاع. الشمس ناعمة أكثر من المعتاد.

تتزداد قوة الحاجز البشرى أمام أعين الجمع حقيقة و مجازا.

أما الحقيقة فكانت فى الأعداد. و أما المجاز داخل أذهانهم، مع كل ملاحظة جديدة و تأمل لرجال العلا و جِدّتهم . قسوة ملامحهم، و قسوة أثر الشمس عليهم يوما بعد يوم.

تلك البنادق على أكتافهم، و الملابس الثقيلة.

حال يزيد معه يأس البعض من بين صفوف الجمع.

رجال فى صفوف متتالية و رغم ذلك يتجنبون النظر بأعين أهل السفح! و هم من هم على حالهم و قوتهم، و بنادقهم بحوزتهم .

و على الجانب الآخر نسوة الجمع لا تكففن عن البكاء حول المقبرة الجماعية. هذه تبكى زوجها أخرى تبكى ابنها.

مر يوم و آخر و عشر و عشرون و ثلاثون يوم. مرت الأيام اشتدت فيه حرارة الشمس مجددا. أحالت الجباه إلى سواد يخالطة حمرة. لا يصبرهم عليه إلا المنبع القريب و مياهه النقية.

فكرة الرحيل تجوب الأذهان كل يوم ألف مرة. و لكن لا يسع أحد التحدث بها. كيف يرحلون و المقابر لا تزال تُفتح كل يوم لتضم جريح جديد؟! جريح لم يتمكنو من إبقائه حيا. كيف يرحلون و آثار الدماء حولهم فى كل مكان؟!

كيف يرحلون و الخليل لا زال به بعض إعياء. يصح ليلة و يرجع لإعياءه ليلة!

و ذات صباح كان اليأس قد تملك فيه القلوب تملك الأسد من فريسته. استيقظ أهل الجمع على أصوات أقدام و تهلل بعيد. و ما أقتربت هذه الجموع حتى بدا ضخامة ما جاءت به من أعداد! و سؤال واحد يحوب الأذهان، هل هم هنا عون لأرض العلا! هل صار رجال و نسوة الجمع محاصرون فى تلك الخيام من أمامهم و من خلفهم! هل هذه هى النهاية! هل كان الأمر يستحق كل تلك المعاناة.

***

ابطأت الجموع البعيدة فى سيرها حتى بدا أنها توقفت تماما. و من البعيد يبدو فرسين اثنين يتقدمان نحو أهل الجمع. بدا الرجلان أنهما مرسالين لكن اتضح غير ذلك.

فى المقابل خرج الخليل -الذى لا زال بجسده بعض ضعف- مع أسعد و نعيم و عدد من رجال السفح يتقدمان أهل الجمع إلى الرسولين و يقطعون الطريق على الرجال القادمين!

و ما إن تقابل الخليل معهما وجها لوجه سألهم الخليل بصوته الجوهورى القوى:

-من أنتما؟

فى البادئ كان السكون فقط هو جواب الرجلين حتر كرر أسعد سؤال صاحبه. فجاء الجواب أخيرا:

-نحن هنا عون لكم. لم نقدم بأذى!

أقترب الخليل و من معه أكثر ليجد أمامه رجلين ليسا برسولين بل هما زعيمى قبيلتين!

الرجل الأول هو شيخ الحياد زعيم أهل الصنو. و هم جماعة من المتعلمين قررو الانعزال عن السفح منذ ما يزيد على قرن مضى يحملون من العلم قدر لا بأس به و يحملون من التصرف قدر يسير.

عالمون عاجزون. لم يتحملو جهل العامة فى أرض السفح فتركوهم قابعين هناك بجهلهم.

طالبهم المالك أن يجاوروه علّ أهله ينتفعون بعلمهم. لكن الأنفة منعتهم من أن يقبلو العيش على فتات تلقى لهم. و ما كان من المالك إلا إبادة نصفهم.

فالكثير من العلم المستقل قاتل أما علم مع خوف فلا ضرر منه.

يُسمون أهل أرض الصنّو لأنهم يقفون فى المنتصف من كل شئ. حتى إن فتشت عنهم فى الجموع القادمة ستجدهم يختبئون فى المنتصف و حاكمهم ذاك هو شيخ حليق الرأس قليل البدن يسمى مأمون الخضيرى.

و أما الجماعة الأخرى فهم جماعة الجور. يعيشون كالبدو فى خيام بمنتصف الصحراء. بقدر من الغرور فى أنفسهم. غرور عقائدى. لهم معتقدات و عادات رفضو تغييرها على مر السنين.

أسمو أنفسهم أهل الجور لأنه معروف عنهم أن المظالم أندثرت لديهم من كثرة التقوى و العبادة. حتى أنه مع مرور الوقت ذاع صيتهم بالفعل. و كان من يرتكب ذنبا فى أرضهم أو أى من الأراضى المحيطة يُؤتى به إلى بلدتهم فقد كان لهم طريقتهم الخاصة فى العقاب.

المجرم يُقتل و يسال دمه لتتشربه الأرض ويدفن حيث يصل آخر سيل دمه.

أعدادهم كبيرة و زيجاتهم بينهم فقط .

زعيمهم هـو السـليط و هـو لقب كـل من يـزعمهم. و اسـمه الحقيقى يُنسى . و يعاقب كل من يناديه باسمه الحقيقى رجما.

السليط رجل شديد الذكاء. عيناه تتقدان. و ذو حكمـة و كلمـات منتقاه و تعبيرات مختارة بعناية.

-لم قد نقبلكم بيننا؟! هكذا جاء سؤال الخليل بعد فترة هدوء و صمت و قد صارت عينيه تدور و تتنقل بين الرجلين!

و أعقب:

-انشـققتم عنـا دهـرا، و طلبنـا عـونكم مـرارا فلم نجـد منكم إنصافا. لمَ نقبلكم بيننا اليوم؟

كان الخليل يقصد بحديثه كل تلـك الاسـتغاثات الـتى بعث أهـل السفح بها للقبائل على مر السنين!

تدخل الخضيرى حكيم أرض الحياد يقول بصوته الهادئ:

-يا ولدى دع الماضى للماضى.

-من تركنا بالأمس يتركنا غدا فما الضمان ألا تخونو؟

-أوكنا قد خناكم قبلا؟ سأل الخضيرى.

-العـزوف عن مـد يـد العـون لمن كـانو أهليكم يومـا هـو عين الخيانة.

هنا تساءل السليط:

-و هل هذا القول ينطبق علينا؟

-ماضيكم لا يشفع لكم و لو لم تكونو منا! قال الخليل.

قطع الخضيرى حديثهما و قال:

-أيرضيك ضمانا بقائنا تحت رايتكم. نخضع لأمرك فقط وحـدك. لا نتدخل إلا بنصيحة تسـألوننا إياهـا. فـإن لم تسـألنا العـون نتحـرك خلفك مغمضي الأعين.

****

رغم الخـوف فى قلب الخليـل من انضـمام جمـاعتين كهـاتين الجماعتين إليهم. فقد راعه ما رآه فى أعين أهـل السـفح حين عـاد يسألهم الرأى.

ذلك البريق بأعينهم و تلـك السـعادة الـتى حلت على محيـاهم. تفصيلات عدة تسـأله أن يقبـل بوجـود هـذا العـدد بينهم. هم بحاجـة عونهم! و الأكثر من ذلك هم بحاجة الشعور بأنهم ليسو وحـدهم فى هذا المصاب، و أنهم ينتمون إلى عدد أكبر يحمونهم و يحتمون بهم.

12

مرت ليال كثيرة اكتمل فيها القمر مرتان ربما خمسون يــوم و ليلة أو يزيد. لاشئ يتغير أبدا.

لمـاذا قـدمت كـل تلـك الجمـوع؟ يقولـون كـل البلاد تسـامعت بخروج أهل السفح! من تسامع بماذا؟! لا أحد يفهم.

أهل السفح لا يدركون تمام الإدراك لمـا هم فيـه. و القـادمون يقولون عنه أمر عظيم. يتعجبـون ثبـات الرجـال و النسـاء كـل هـذه الأيام.

يعيشون على اصطياد دواب الصحراء. حتى أنهم يأكلون الميتـة إن هى توافرت.

جدد قدوم الأعداد الغفيرة الطاقة و الأمل بقلوب أهل السفح. هذا هو السبب الحقيقى لسماح الخليل ببقائهم. سبب لم يعلنه. بـل تحجج بأحقيتهم فى البقاء إن كانو يقفون معهم فى وجه المالك.

اشـهر زادت فيهـا الأعـداد قليلا و لكن بشـكل فـردي. فتـأتى الأفراد و العائلات الصغيرة. البعض يفقد أخوته و أهله على الطريـق و يطلب العون للعودة و غوثهم.

كـانت نـيران الليـل تفى بأبعـاد الـذئاب المفترسـة أحيانـا و اصطيادها أحيان أخـرى. و كـذلك الـذئاب البشـرية على حـدود العلا، التى كان يمر الليل بسببها مخيفا.

من العجيب كـون جنـود المالـك أوقفـو نـيرانهم تمامـا. مـاذا يتنظرون؟ هل ينتظرون استسلام الجمع و رجوعهم.

الجمع نفسه و الـذى يفكـر بالبقـاء حـتى يمـل منهم المالـك و رجاله.

أليس مبتغـاهم مشـروع. و هـل خرجـو إلا إلى العمـران خلـف أرض العلا. حيث أرض لا تجف أبدا. ولا يجوع المرء فيها.

***

و فى غمرة الزحام الجديـد، و مـع مـرور الأشـهر المتتاليـة. لم يبدو أن شيئا على وشك التغير. و لكن أمر وحيد كان قد بـدأ يتفـاقم أكثر و أكثر مع الوقت. و هو الجدالات بين الجماعات و بعضها. و هم الغرباء عن بعضهم!

و زاد من حـدة الأمـر أن حـدث ذات صـباح أن خـرجت نعمـات كعادتها إلى حيث الجرحى. التى تقوم و ليال على رعايتهم.

كـانت تتهـادى فى الصـباح البـاكر فى ثـوب ازرق. فوقـه تلـف ملاءة سوداء تغطى بهـا بعض وجههـا. ينسـاب شـعرها الـذهبى على جانبى صدرها.

تعـرض لهـا فى ذلـك الصـباح أحـد الفتيـة. و كـان شـابا من المسلمين القلائل فى الصند. ذو وجه مكفهر و عينان غائرتان.

الأمر الذى أشعل جدال بينه و بين أسعد الذى كـان يمـر حينهـا مصادفة.

جدال علت فيه الأصوات و قام منه النيام فزعا.

انتقل أمر الفتى للخليل الذى حكم فى البادئ برحيله عن الجمع. و لما كان هذا الفتى هو العائل الوحيد لأسرة مكونة من أمرءتان و ثلاث أطفال. فقد تم تخفيف الحكم عليه إلى عزله بعيدا عن خيام الجمع بمسافة كيلومترا لأسبوعين متتاليين. ان نجا من الصحراء بثعالبها و حرارتها عاد و ان لم يفعل فقد تلقى عقابه المناسب له.

و فى نفس الليلة تم عقد اجتماع اتفق فيه أهل البلاد الأربع على تزويج عدد ستة عشر فتى و فتاة من القبائل الأربع بينهم حتى يتم خلق انساب بين هذه القبائل و بعضها.

تم اختيار الفتيان و الشابات من ابناء الشيوخ و الرجال الأعلى مقاما فى كل فرع.

و على الرغم من أن الوقت لم يكن مناسبا ابدا لإقامة عرس إلا أن علو مقام الفتية الذين تم اختيارهم أجبر الجمع على إعداد العدة لإقامة عرس يليق بهم.

و فى خضم تلك المسألة وجد الخليل أسعد يفاتحة ذات ليلة برغبته فى خطبة فتاة بعينها. و ما إن عرف الخليل أن حديثه عن نعمات فقد قرر أخذ أسعد إلى الجد.

و ما إن وصلا و فاتحا الجد فى أمر سعد حتى تسائل الأخير فى تعجب:

-هل انتظرت خروجنا إلى الصحراء لتطلبها. و هل هذا الوقت المناسب للزواج؟!

لم تكن هذه كلمات تعبر عن مكنون صدر الجد الحقيقى. و لكنها السخرية المشروعة. هكذا يفعل أى رجل قبل أن يُسلم فتاة من بيته للزواج.

لم يحر أسعد جوابا على سخرية الجد. فكيف يخبرهم كم يخشى رفضها له. ولا يقصد رفضها الزواج منه. فهو يعلم أنها ستتزوج من أى رجل يختاره الجد لها. لكنه يخشى رفض نفسها لنفسه. ذلك أمر القلب و لا سلطان عليه.

يخشى أن يتزوج بها و يراها كل يوم لا تبادله قدر الحب نفسه الذى يكنه لها. هو لا يريد لنفسه أن تشقى بها. بل والله يكفه أنه يسترق لحظات يراها بها كل صباح و يملى عينيه منها. و ليبقى جاهلا بما تشعر به ناحيته.

و لما كان الجد يتعجـل زواجهـا منـذ قـدمت إلى القصـر. و هى على حسنها و براءتها يخشى عليها أكثر ما يخشى أهل السوء. فقـد عرض الامر عليها فى اليوم التالى.

تلقت نعمات الخبر بصمت غريب. فسّره الجد أنه علامة رضـا. و خرج الخليل إلى صاحبه كى يبشره.

أما ليال – التى اعتادت رعاية الجد فى الأسابيع الاخيرة- فقـد شهدت الوجوم فى وجه الصبية.

و مـا إن رحـل الخليـل حـتى ابتعـدت بهـا عن زحـام الخيـام المنصوبة. و سألتها عن سبب وجومها.

لم تحر نعمات جوابا لفترة ثم قالت أخيرا:

-بل تعم الفرحة قلبى!

-هل تسخرين منى! تساءلت ليال!

-لا والله لا أفعل!

-ماذا إذا!

-الأمر أنه..

الأمر أننى اخشى عليه ماضى لا يعرفه!

****

قررت نعمات العمـل بنصـيحة ليـال و إخبـار أسـعد بكـل شـئ! انتظرته على الطريق و كان عائدا من طريق النهر يحمـل حطبـا. مـا إن رآهـا حـتى تهللت أساريره. أنـزل مـا على كتفيـه من حطب. و تقدم إليها باسم المحيا.

لكن وجوم صده للحظة و تحول لتساؤل:

-هل أنتى بخير!

فكر أسعد أن نعمات قدمت لتخـبره أن يرجـع فى أمـر طلبهـا؟ هل كان ما يخشاه حقيقى!

سألته بعدما ألح بالسؤال عن سبب قدومها:

-أنت لا تعرفنى.

كانت نعمات تشير بحديثها إلى عملها القديم بالرقص. و لكن لم يكن هذا وحده هو ما يعترى نفسها. و لكن حقيقة أنها ابنة زنا. لا تعرف لنفسها أب ولا أم. الأمر الذى جعل قلبها يضطرب من أمر الزواج.

هل تنجب أبنا أمه راقصة و جدته زانية!

و لما كان حديث ليال كله يعلمه أسعد قبلا فقد تعجبت و تساءلت:

-أوتعلم؟! و لكن منذ متى؟!

-منذ قدومك أول مرة.

- أهذا ما منعك القدوم قبل اليوم؟

لقد سألت عمن أحببتها لا عن نعمات الغريبة. قال أسعد مستنكرا حزنها.

-أولا تبالى؟

-لا أبالى بشئ سواك أنت. و لست أبالى بما كان منك قبلا. قال أسعد و هو يدنو من نعمات و يميل برأسه نحوها. و قد هدأ صوته و خفت.

و أعقب:

-ولله ما تمنيت قط إلا أن أرى بعينك نظرة رضا ترضى بها نفسى على.

امنى نفسى كل ليلة أننى غدا أرى بعينيك القبول. و ما ألقاك إلى و أجد نفسك فى إعراض عنى. كأنه ليس لوجودى وجود.

أعود و أعاهد نفسى ألا أرقب خطاك بعد اليوم قط. فتحملنى نفسى مع شقشقات الصباح إليك.

أهرع إلى المجرى. و انتظر نزولك بتشط الثياب. و ما تكاد عيناى تلمحان طرفك حتى تصفى نفسى و يتراقص قلبى بين جنبات صدرى فرحا. و يأتى الليل. و لم يفارق محياكى عقلى. أقول ما لى و فتاة لا تكاد ترانى. و أعاهد نفسى مجددا أن أهجر السفح إلى محل آخر فلا ألتقى بك مجددا. لكن ما إن يأتى الصباح حتى يطلب قلبى زاده و يلح. فأرتدى مركوبى و جلباب و أهرع إلى حيث ألقاك!

***

أيام قليلة فصلت بين موافقة نعمات و الزفاف الذى تجمع فيه سبعة عشر عروس و عريس.

و لما كان الجمع ينتظر سببا للفرح. فقد بارك الجميع الزفاف.

بعض الورود زينت تيجانا من الاغصان برأس كل عروس. و خاتم من الفضة. كان هو مهرها.

أما الرجال فقد ارتدو جلابيب سوداء بسيطة أوفت بالغرض.

و انقسم الجمع بين نسوة و رجال.

النسوة داخل الخيام يتغنين و يرقصن على إيقاع بتصفيقهن مع الطبول.

و على وقع الطبول نفسها يرقص الرجال. كل رجلين يتضاربان بالعصا على إيقاع يمتزج فيه هدوء اجسادهم مع صخب العصى.

كانت نعمات ترقص كعهدها القديم. يتمايل خصرها كتمايل الأغصان مع الريح. و كذلك أم سندس. لم يهدأ صوتها الذى يرن بالأغنيات كلما تعبت النسوة من التغنى.

و استمر الاحتفال حتى قرب شقشقة صبح اليوم التالى و كأن الجمع يخشى التوقف عن ذلك الاحتفال.

مرت ليال عديدة بعد العرس. طغت فيها البهجة التى كـان قـد نسيها أهل الجمع منذ خروجهم من أرضيهم.

و ربمـا شـعورهم بالانتمـاء الحقيقى لبعضـهم البعض فى هـذا الزفاف و ما لفهم من سعادة أسقطت بعض الحواجز بينهم.

و لكن لم تستمر هذه البهجة طـويلا. و مـع مـرور أيـام ظهـرت هشاشة لم يحسب أحد لها حسبان.

الدفء الممتد بين الصفوف و داخـل القلـوب بـدأ يخفت رويـدا رويدا. و فى النهاية اختفى.

لم يكن السبب فى اختفائه جدالات أو مناقشـات. أو خـوف من رجال العلا.

بل كان السبب أبسط من كل هذا و أكـثر غريزيـة. كـان حلـول الشتاء فقط هـو السـبب. جمـدت برودتـه الشـديدة هـذا الـدفء فى أسابيع معدودة. لم يكن الحماس كاف بالقلوب ليطغى عليه.

و خصوصـا بعـد تعهـد مالـك العلا بتخفيض الضـرائب فى كـل البلاد، و تمليك الأراضى للفلاحين.

كـل الـذين حضـرو بشـكل فـردى بـدأو الخـروج بشـكل فـردى مستتر، حتى لا يقال عنهم أنهم خواريين.

و العائلات الصغيرة بدأت تتسلل فى الليل فلا تسأل عن شـئ. عائلة ترحل خلف الاخرى و قبيلة خلف الأخرى.

حتى جاءت ليلة باردة كالسقيع. فكأن الهـواء اسـتحال ثلجـا. و كان ما يبلغ أكثر من ثلث الجمع قد رحل.

و لم تفلح كلمـات الخليـل بإثنـاء من رغبـو فى الرحيـل عن رحيلهم. فقبع فى الخلاء يتأمل المسـاحة الفاصـلة بين أرض العلا و السفح. جسده يرتجف بردا و عقله لا يبالى.

ضياع أخرجهزمنه صراخ داخل بعض الخيم و على الجانب الآخر رجال يتسللون عائدين إلى صفوف العلا.

و خلال لحظات تلا الصراخ نـيران مرتفعـة تبـدد عتمـة الليـل و تأكل الخيام. نيران تزيد ريح الفجر من انتشارها. الجميع يتفرقـون كنعاج توسطهم ذئب.

بعض الرجال حاولو إيقاف النيران التى تنتشر بسـرعة تتنـافى مع مساحة الرمال الواسعة. و لكن لم يتمكنو إلا من مشاهدتها تعلـو أكثر و أكثر و كأنها تـأتيهم من العـدم. بعض الاجسـاد تهـرول بثيـاب مشتعلة تماما فتفرق كل جمع يقابلها. ولا احد يسعه التـدخل. كـان الأمر أشبه بلعنة حلت عليهم.

مع الوقت بدأت النيران تنحسر وحدها رويدا رويـدا . من بعـدها بدأ البعض التحرك هنا و هناك. يسحبون الأجساد التى خمدت نيرانها و يصبون الرمال صبا فوقها.

أما النسوة فكن يولولن و يصرخن بحثا عن اهليهم.

وسط كل هذا الصخب و العجز ظهر بضعة شبان لهم هيئـة و كأنما هم الملائكـة. ثيـابهم أفرنجيـة باهظـة. ينـيرون كالبـدر وسـط الركام و الحريق المحيـط. يتحركـون تجـاه الخليـل الـذى كـان يصـب الرمال على الأجساد المحترقة.

ما إن رأهم حتى ظنهم الموت يقبض روحه. و لكن كـانت ليـال هناك قريبة تقف فقط بلا حراك تنظر لهم مثله تمامـاً. هـو لم يجن إذا. كانو سبعة فتية. تساءل الخليل فى اضطراب :

-من أنتم؟

-نحن...

كان من حاول الإجابة هو فتى يسمى مؤنس.

فتى جميل الهيئة و القسمات. بشرته بيضاء كالثلج و ذقنه بنية ناعمة. له صوت قوى جهورى. و قامة طويلة و أكتاف عريضة.

بادر يقول أمام صمت الخليل الذى بدا انه فهم من يكونون:

- بم يمكننا امدادكم!

امسك الخليل بياقته المطرزة يسأل:

-هل أنت!

كـان الخليـل يشـير إلى كـونهم من أرض العلا! و لمـا لم يأتـه جواب. تأكد شكه. فانهال على الفتى ضربا.

كاد مؤنس أن يمـوت بين يـدى الخليـل قبـل أن تتـدخل ليـال و تحاول منعه. و لكن اسقطتها ذراعه أرضا.

لاقى جـرح -أحدثـه الخليـل بفم ليـال – من نفسـه فهـدأ قليلا. اقترب منهـا يحـاول إقامتهـا عن الأرض و لكنهـا ابتعـدت فى خـوف مجدداً. خوف لاح بعينيها و كان قد اختفى منذ مدة.

قالت فى يأس:

-أنظر إليهم. إنهم فتية صغار. لا تحاسبنهم بحسابات أجدادهم.

تطلـع الخليـل إليهم مجـددا. ثم انتحى عنهم فى صـمت سـائلا إياهم الرحيل.

***

ليلة مفجعة. كان المصـاب الأشـد فيهـا من نصـيب أم سـندس. كانت تمسك بصغيرتها التى صارت جثة متفحمة دون حديث.

عويـل شـق الصـدور و شـفاها. لـو لم تصـرخ هى هكـذا لجُن الباقون. لو لم يرو جنونها على مصابها لفقدو عقولهم.

تفحمت سـندس و تفحمت خرقـة سـندس الصـوفية الـتى لم تزلها عن جسدها أبدا.

تلك الصغيرة التى كان لهـا طبـاع غريبـة غـير بقيـة الأطفـال. تتحـرك حركـات كثـيرة مكـررة و لا تلاقى عينيهـا بـأعين النـاس ولا تقترب من أى غريب.

البعض ظن أن بها مـرض بعقلهـا و البعض كـان يراهـا طبيعيـة تماما إلا من الخرقة الصوفية الذى لم تكن ترتدى سواها أبـدا. حـتى إنهـا صـغرت عليهـا بعامهـا الأخـير هـذا فأبتـدعت أم سـندس البـدع للحصول على مثيله لها و لكن أكبر.

لم يبد أن أم سندس تدرك كـون الفتـاة متفحمـة بيـدها. كـانت تملس على خصـلات الشـعر القليلـة المتبقيـة. و مـا إن أدركت ذلـك حتى كاد عويلها يصل إلى السماء.

ليلة لا برد فيها. فكانت النيران تدفى الأجـواء حـولهم و كـذلك الأفئدة. الأفئدة كانت مشتعلة تلك الليلة.

تم جر الجثث حول بعضها فى محاولة للتعرف عليهـا. لكن لم تكن لأحد القدرة على فعل ذلك. كل من فقـد فـردا يعلم أنـه فقـده ولكن لا قدرة له بالبحث عنه بين تلك الجثث .

تم الدفن سريعا. كأنما يدفنون ألمهم. و يـدفنون معهـا رائحـة التفحم القاسية.

***

لم تكن النيران إلا تمهيدا لمعركة سيبدأها رجـال العلا. اللـذين كانت أعدادهم تفوق أعداد رجال الجمع.

مزيج من الاستسلام التام و الحزن الشديد يسرى فى العـروق، و تخالطه رغبة شديدة فى النجاة.

و لكن لم يبد أن هناك مخرج. غير المواجهة.

صار الخليل ينادى أن امسكو! و صارت طبول الزفاف من ليلـة عرس أسعد تُدق بأيدى النساء. تشعلن بضربهن عليها قلوب الرجـال و تنادين مع الخليل أن امسكو!

تراءت أمام أعينهم الجثث المتفحمة. و قسوة الليلة. فاصطفو فى لحظات و عاد وعيهم إليهم كعودة الروح للجسد.

قامو قومة رجل واحد على حماة العلا.

ينـدفع الرجـل منهم بين الصـفوف المقايلـة. يلتحم بكامـل جسده مع جسد الجندى أمامه. يلكم بيـد من حديـد. تشـتعل جوارحـه اشتعالا فيحرق بها كل من يمسه.

كان الجنون و الفورة سيدا الموقف. الرصـاص لا زال ممنوعـا. لـذلك فـإنهم رجـال جمـع عُـزل يواجهـون جنـود العلا بخنـاجرهم و أسلحتهم البيضاء وحدها!

بين كر و فر و دماء تتناثر يمنة و يسـرى. رقـاب تـدق. و أرواح تُنتزع شقشق الصباح.

و مع شقشـقته ظهـر انكمـاش أعـداد رجـال العلا أمـام رجـال الجمع. كيـف و مـتى! لم يفهم أحـد. الخنـاجر نفسـها صـارت بإيـدى رجال الجمع أكثر منها بإيدى رجال العلا!

نادى قائدهم حادر السيد أن أرجعو. فرّو و قد نقصت أعـدادهم النصف! لا يدرون إن كانو قد واجهو رجالا عُزل أم وحوشا!

ما الذى دب الحياة داخلهم من جديد! و كانو قبل ليلة اشـد ميلا للخوارين الجبناء. هل يا ترى تسللت نيران الحريق إلى دواخل هؤلاء الرجال العزّل! هل يـا تـرى أخطـأو حين أشـعلو النـيران فى الخيـام أولا!

لم يكن من سـبب واضـح يفسـر هـذه الحالـة الـتى كـان عليهـا رجال الجمع. كانو كأنما هم الموت. كـل فـرد فيهم كأنمـا يـدفع عن أهل بيته أمام فرد بعينه. و إما أن يأتى. و كأن اليقين قــد دب فيهم بالنصر قبلا. ربما هى تلك الخيـام خلفهم و مـا تحـوى من نسـاء هن نسائهم و أطفال ينتمون لهم.

و رغم ذلك لم تكن هناك بهجة أو رضا بين صفوف الجمع! فقد فقدو بدورهم أعدادا كبيرة. من بينهم أبا سـندس الـذى جـدد رحيلـه عويل و آهات أم سندس عويل الـتزمت هى من بعـده الصـمت أيامـا طويلة حتى ظنو أنها فقدت صوتها.

مرت ليال طويلة و أسابيع و أشهر. تقاتل فيها رجال العلا مع الجمع الباقى مرات عدة. بين هزيمة و نصر استمرت المناوشات. حتى لم يبدو ان لهذه الحرب نهاية أبدا! و عاود جنود العلا استخدام البنادق التى تمكن أهل الجمع من الاستيلاء على كمية معقولة منها، بمساعدة مؤنس و صحبه الذين كانو من أبناء اكبر أعيان العلا!

و رغم صغر هذه الكمية مقارنة بما يملكه جند العلا إلا أنها زرعت الرعب فى نفوس أهل العلا و أعيانهم خاصة و أنهم لم يستطيعو معرفة قدر ما يخبئه أهل الجمع!

و وضعت نعمات وليدها الأول. و الذى جاء هزيلا. يخبرها كل من يراه ألا تحزن. يقولون لن يبقى على قيد الحياة. يحاول أسعد مواساتها كل يوم و كل ليلة. لا تنام ليلا أو نهارا. تستيقظ فزعة و تضع يدها على بطن الصغير و تتيقن أنه يعلو و يهبط.

مرت الأيام و الشهور و صحّ الفتى. و لما لم يكن ثدى أمه يدر لبنا فقد كانت تتولى رضاعته امرأة قدمت حديثا مع نساء النجد. و هى قبيلة تسكن الجبل!

و النجد قبيلة نسوتها فاتنات. يعيشون داخل الجبل نفسه و فى كهوف من بنيانه. قبيلة كاملة هربت إلى الجبل منذ عقود هرب من ثأر قديم. و لم تهبط إلا أن تسامعت بأمر السفح! يرتدى أهلها الخيش فوق خرقة من القماش . لهم شعر طويل مجدول جدائل عديدة. و لحية طويلة شعثاء.

قدم الصغير معقود بقدميه خير. فذات صباح خرج على أهل الجمع مرسال من العلا. و كان لمروره من خلال الحاجز البشرى أثره. لمحه رجل وحيد. كان يخرج من المقابر الجماعية -التى صارت تغطى مساحة كبيرة من الصحراء أمام أرض العلا- و ما إن لمحه حتى بدأ يهرول و ينادى بأمره بين أهل الجمع.

وصل الخبر إلى الخليل خلال وقت يسير. ليتحرك بدوره إلى حيث المرسال.

وجد الخليل نفسه أمام رجل له هيئة رجال العلا الواقفون خلفه عدا عن اسمرار شديد أصابهم تحت هذه الشمس الحارقة و لم تصبه. له جسد شديد النحالة ، وجه طويل و عينان حادتان غائرتين.

اقترب الخليل من الرجل فى توجس و رفـع صـوته إلى البعيـد يسأل:

-ما خروجك إلى أرضنا؟

أجاب المرسال:

-لا داع للخوف أنا رجل أعزل .

-أعزل و لكن خلفك جيش.

-كالذى هو خلفك تماما.

تطلع الخليل خلفه ليجد عـدد كبـير من رجـال و نسـاء تسـامعو بالخبر و خرجو خلفه .

-ماذا تريد؟ سأل الخليل .

-أحمل خطاب من مالكنا ألقيه إليكم و أعود أدراجى.

قال المرسال كلماته تلك و هو يفتح صحيفة بيده و لكنـه عـاود إغلاقها و تساءل متعجبا و قد هدأت حدة ملامحه:

-أخلفك خرجت كل هذه الجموع؟!

بدا السؤال غريبا و محيرا. تطلع الخليـل حولـه مجـددا ثم قـال بعد برهة صمت:

-خلفهم خرجتُ.

عاد المرسال مجددا يقول كأنه لم يسمع جواب الخليل:

-هل أنت من تخضع لك و لكلمتك كل هذه الأفراد.

-لا احد هنا يخضع لأحد.

تأمل المرسال الأرض تحتـه طـويلا ثم رفـع رأسـه و بـدأ يقـرأ الصحيفة.

رفع صوته كأنما يحاول إرضاء غرور كل تلك الجمـوع المحيطـة دفعة واحدة بدأ يتلو:

"إيقافا للدم المسـفوك من كلا الجـانبين ، يسـألكم المالـك أن تخضعو لما جئ به، لأنه الاخير لكم و لنا"

توقف مجددا تطلع إلى العيون حوله ثم قال بصوت أكثر عمقـا هادئ يفصل كل جملة عما يليها :

"ستصبح هذه أرضكم." توقف مجددا و عاود تأمل الوجوه الـتى بقيت صامته فأعقب:

" لن نرسلكم عنها. لن نرغمكم على تركها."

صـمت مطبـق تلاه همهمـات. "أى أرض .". هـل يقصـد هـذه الصحراء القفر !

قطع المرسال الهمهمات برفع صوته عاليا يقول: " لن تعـبرو أرضنا و لن نسمح لكم بذلك.

و أعقب: " فى المقابل ستصبح لكم أرضكم الخاصة . تعمرونها بأيديكم و مواردنا. نوفر لكم حاجتكم قدر المستطاع"

أعقب المرسـال دون السـماح بهمهمـات أخـرى: " نمـدنكم بالبذور تزرعونهـا و بالـدواب تنتفعـون بلبنهـا و لحومهـا. نـوفر لكم آليات البناء. و نمدكم بخيرة البنائين يمدون لكم يد العون".

صـمت طويـل أعقب كلمـات المرسـال. رأى فيـه خضـوعا فى النفوس.

كان الصمت صمت ارتياب و شـك. لم يصـدح أحـدا بطـرح هـذه الحقيقة. فأعقب المرسال:

" ستوقع صحيفة بذلك. ثابتة لا تتغير. بأنكم لا تقربون المنبع ولا تحاولون العبور إليه أبدا"

أعقب و قد أغلق الصحيفة:

" و أخيرا سـتُمّلك أراضـى الزراعـة، البـذور، و الـدواب، لمـأتى رجل منكم تختارونهم يتولون أمركم. "

" إن وافقتم على ما جاء فى الصحيفة فموعدنا بعـد أيـام ثلاث هنا قبل غروب الشمس"

أنهى المرسال كلماته تاركا الجمع فى حال لا يحسدون عليهـا. الصمت مطبق كأنما على رؤوسهم الطير. حتى تحدث أخـيرا أسـعد يطلب تفرق الناس و يسألهم حضور شيخ كل جماعة!

***

لم ينفض الجمع سريعا. بل استمرت الهمهمات فانسحب عنهم شيوخ القبائل يتراسهم الخليل.

كان غرض التجمـع واضـحا. و كـان مـا فى النفس واحـد. الكـل يجتمع فى قلبه مزيج من الفرحة و الحماس يعكـر صـفوهما ارتيـاب شديد و توجس.

البعض يرى فى حديث المرسال نجاة. و اليأس يتملـك البعض الأخر. لكن الشعور الأكثر تجليـا كـان اليـأس الشـديد و الرغبـة فى سلام يعم أرجاء الجمع.

بدأ الحديث قـرب النهـر من الأب أيـوب عن الصـند الـذى جلس على صخرة من فرط التعب. صخرة تجمع حولها بقية الرجال. قال و هو يتأمل جريان النهر :

-ألسنا قرب المنبع بدرجة كافية!

استنكر أسعد يقول:

-نعم قرب المنبع و لكن لا زال لأرض العلا السيطرة عليه.

تدخل الأب يقول:

-و هل لنا طاقة بالدخول فى حرب مع هؤلاء.

و أعقب:

-تعلمـون أنهم لـو خرجـو علينـا لأبادونـا عن بكـرة أبينـا. و لا يمنعهم عنا إلا بعض خوف لن يستمر طويلا و نحن عُّزل.

تدخل السليط ناهيا:

-أنخضع لهم و نحن رجال من أظهر رجال!

أجاب الخضيرى يتعجب اندفاع السليط:

-تُسميه خضوع و هو فى حقيقة الأمر حسن تدبير!

ثم أعقب:

-لا يمكن التعامل مع كل شئ بالسيف.

كان الخضيرى يشير إلى عنف أهل الجور.

مما دفع السليط للرد و قد علا الغضب وجهه.

-أكلما صدحنا برأى قلتم الدم.

بدا أن الحديث يأخذ منحنى سئ حين أمر الخليل بفض الجمع و التفكير بروية على أن يجتمعو غدا قبيل المغرب. علهم يتفقون حينها على رأى.

هم الخليل و أسعد يسبقان الجمع. صمت مطبق على كليهما و لا أحد يصرح بما فى صدره للآخر حتى قال أسعد قاطعا ذلك الصمت:

-كيف نرفض فرصة كتلك! الحرب المبنية على شك هى حرب خاسرة.

أجاب الخليل و قد اتفق حديث أسعد مع ما فى نفسه:

-لا أظن أننا نملك رفاهية الرفض. فنحن لم نترك أرضا قفرا إلا لبعض ماء. و ها هو ذا يمر إلى يميننا. فماذا قد نرغب به أكثر.

قال الخليل ذلك و هو يفكر أنه لا توجد حقيقة أسباب كافية للرفض. أما القبول فكان كل أسبابه حاضرة. هو لا يملك بديلا آخر إلا الحرب التى سينهزم فيها و من معه عاجلا أم آجلا و قومه عُزّل على أية حال.

كانت قدوم المرسال إجلاء واضح لعتمة القادم و غرابته. التراجع و العودة أمر غير وارد و التقدم أمر أقرب للمستحيل. و البقاء هكذا فى عدمية عمت على كل الجمع. و كأن الجميع قرر ألا يلتفت لحقيقة أنهم ضائعون.

السبيل الوحيد هو الصبر حتى حين. فإن الماء أكثر نظافة و وفرة هنا . و الطعام إن كان شحيح فقد كان قبل شحيح أيضا. فما الذى يرجعهم!

***

تحرك الخليل و أسعد إلى الجد. فعنده تبدأ المشورة و تنتهى

لكن ريح الليل كانت معبئة فى هذا اليوم بالذات بالأتربة، و هو ما أعزى إليه الخليل ذلك الضيق فى صدره.

كانت خيمة الجد مفتوحة و صوته مسموع . كانت ليال تجلس إليه ممسكة بيده اليمنى. و قد اشتد عليه المرض.

يتعجب الخليل رغبة الجد إبقاء ليال دوما إلى جواره رغم معرفته بأمرها! و إن سأله عن سر ذلك. قال ليس كل أهل العلا سواء!

دنا الخليل يقبل يد جده. فمرر الجد يده على لحية الخليل بشكل عكسى حتى صارت شعثاء، و تساءل :

-ما كل هذه الشعر الأبيض يا خليل؟ أتفعل بك هذا ثلاثون عاما فقط.

-بل خمس و ثلاثون يا جد!

و أعقب يسخر و قد لحظ وجوم على وجه ليال:

-ما بال وجهك منير اليوم؟ هل هى فعلة المرض بك!

قال الجد و هو يتنهد:

-لقد اشتقت يا خليل. أرى أرض السفح الآن أمام عيناى.

كان الخليل يمسك بيد جده و يقول فى سخرية واضحة:

-نعود يا جد. نعود لزيارتها إن كنت تشتاق. أجابه الجد :

-و لكنه قد حلّ. أراه حولى. إنه ليس ببعيد.

-من هو؟

لم يجب الجد بل أعقب:

-و إنه والله ليس بمخيف.

ضم الخليل يد جده و دنا و قرب وجهه أكـثر. فقـرب الجـد يـده من رأس الخليل و مررها فوق شعره و هو يقول:

-و هـا أنت ذا. صـرت جـزءا لا يتجـزء من الطريـق. فلا أخشـى عليك بعد اليوم.

كان الخليل قد بدأ يدرك أن السـر الالهى على وشـك الخـروج. جده يرحل. يشعر بهذا منذ أيام. جلس بجواره يحاول كبت مدامعه و الامساك على قلبه.

-أضّن عليك بالطريق يا ولدى أن تكمله وحدك.

لم يفهم الخليل فسأل و الحزن يطغى على صوته:

-ألا ترتاح يا جد؟!

نهر الجد الخليل. و سأله ان يستمع. كان كأنما يلقى وصية.

قال و قد ذاد ألم صدره فآثر الاعتدال بجلسته:

-لا تتعجل الوصول يا ولدى. فلقد والله وصلت بالفعل.

حاول الخليل إثناء جده عن الحـديث مجـددا و لكن لم ينجح فى ذلك. و أعقب:

-ما حولك هو الخراب. و ليس الوصـول مرهونـا بهـذه اللحظـة. بل قد تم لك الوصول حين دب فى قلبك اليقين به أول مرة.

حين خرجنا من السفح كلنا.

صار صوت الجد ضعيفا واهنا. قال و هو يتطلع إلى الخليـل فى بحر عينيه و يقول:

-إن الانتصار يتحقق مرارا و تكرارا قبـل المعركـة. و اليقين لا يخضع للزمان و متطلباتـه. اليقين من اللـه و اللـه لا يخضـع للأزمنـة التى خلقها.

قال الخليل و هو يمسح على رأس جده:

-ماذا أفعل إذا؟

لا شئ. أجاب الجد و أعقب:

-و هل تظن أن بإمكانك فعل شئ. يا ولدى. الطريق أنت تبـدأه أما مسلكه و منتهاه سيخطه الطريق بنفسه. فلا تحاول تغير المسار رغما!

***

غفا الخليل إلى جوار الجد فى تلك الليلة أما ليال فغفت فى الخيمة الملاصقة.

حين استيقظ الخليل وجد يد الجد ملتفة حول يده. باردة جامدة و متحجرة. سحبها الخليل فى هدوء. قام يشعر بتثاقل فى القدم . كامل جسده كأنما يهبط به لأسفل.

كأنما تسحبه الأرض ليرقد إليها. رعشات تملكت من يديه خفيه. نادى أن يا ليال.

كانت ليال قد لمحت الجد الذى صار وجهه أبيض تماما، و فمه مفتوح، و شفتيه باهتتان. تجعيدات وجهه تكاد تختفى وصارت ليال تبكى.

نهرها الخليل ممسكا بذراعها متجاهلا حالها. كانت يداه المرتعشتان واهنتان فترك ذراعيها. كانت عيناها تغدقان بدمع صامت، ينساب دون شعور منها.

عقل الخليل قد انتقل إلى حالة بين الوعى و اللاوعى . فهو مدرك أين هو و ماذا يفعل ،أما عيناه فلا يسعهما التحرك و لا الرؤية.

تتحرك الأشياء من حوله لكن عيناه كانت معلقتان تنظران للداخل. داخل روحه. رأى جده و سمع كلماته.

ثلاثون عاما مرت منذ أول ذكرى و أول حديث جاد بينه و بين جده.

هل قُدر لك يا جد أن ترحل قبل أن تطفئ نيران اشعلتها معنا. هل ترحل دون أن ترى الرماد!

***

اتم الخليل التغسيل و الدفن. تلقى التعازى. أصوات مألوفة. ربت على الكتف. أحضان و مواساة .و لحظات قليلة قبل نومه تلك الليلة.

ليلة طويلة تمنى الخليل انتهاءها سريعا. يلعن بداخله كل الذين يتساءلون عما حدث. يلعن اضطراره للبقاء مستقيما و هو يرغب فى الرقود إلى جوار جده. يلعن ثباته المصطنع و عيناه تهربان من كل من يعلقها به.

ليلة طويلة ما إن أغمض عيناه بعدها حتى صار يرى و يشعر بكل شئ. يشعر بخفقان قلبه و محاولة إسكانه. غليان رأسه الذى يمنع عنه التمدد فيعتدل محاول النوم جالسا. نوم متقطع فزع فيه ثلاث مرات.

خرج فى الليل من غرفته يمسك برأسه المثقل. تحركه قدماه لا يحركها هو. خرج من البيت يقصد المقابر . حين وصل لم يتذكر بأى زاوية دفن جده فوقف بعيدا.

تبعته ليال التى جافاها النوم كذلك. كان يخيفها فى ذلك اليوم. أبقت نفسها على مسافة بعيدة عنه.

رأت اضطراب واضح فى نفسه خفى عن العيان لو تطلع أحدهم إلى عيناه لفهم. اضطراب آخر فى قدمه التى يسير بها متثاقلا كأنما وزنه صار ألف طن. يرفعها فى محاولة للإسراع فتهبطان كأنهما نفس الطن بل أشد . و ما إن رأته يجلس إلى الأرض حتى دنت منه.

حاولت أن تخفف عليه ببضعة كلمات. لكن عيناه كانتان مخيفتان ضائعتان. تراجعت إلى لخلف فى فزع . لكن أسكن خوفها ثقل بدن الخليل و هو يرتمى برأسه على كتفها. حاولت الأنسلال من بين زراعيه و لم تستطع. منعها صوت نحيبه و كلماته المتقطعة :

-قد مات ولدى. هو كان ولدى يا ليال.

ثلاثة أشهر مـرت على رحيـل الجـد لم يكن الخليـل قـد تعـافى تماما خلالها. يغيب عقله و يحضر. لا ينعم بالنوم إلا قدر ضـئيل من الليل. يستسيقظ خلاله مرات عديدة. ينـام بخيمـة جـده. لا يبارحهـا فإذا ما قدم الفجر هام على وجهه إلى المقابر...

كـان يشـق علي ليـال أن تـراه على حالـه هـذه. مـع يقين أن وجودها أمامه طوال الوقت يثقل الأمر عليـه أكـثر فـأكثر. ربمـا لم يخبرها ذلك بلسانه قط و لكنها تشعر به فى عينيه. كان بإمكانهـا أن تعاند حين كان قلبه قويا . أما و هى تراه هكذا فلا يمكنها البقاء بين الجمع.

وذات صباح كانت قد اتخذت قرارهـا و عـزمت على الرحيـل . رحيل جاب أمره بعقلها ليال طوال منذ وفاة الجد. لا يمنعها عنـه إلا نفسها التى تنازعها بالبقاء لسبب تجهله. سبب لا علاقة لـه بخوفهـا العـودة لأرض العلا. كـان بقاءهـا لأمـر مختلـف هـذه المـرة. أمـر لم تتمكن من تفسيره.

خـرجت فى صـباح نسـماته منعشـه و شمسـه هادئـة . و كـأن الطبيعـة حولهـا متـآمرة عليهـا ، فتجّـر عليهـا الحـنين قبـل الخـروج حتى... وضعت بعض ثيابهـا فى ملاءة سـوداء قديمـة و لفت ملاءتهـا حولها. كادت أن ترحل متخفية دون علم أحد . هذا أفضل. الوداع أمر سئ. و لكن حدثتها نفسها برؤيا الخليل مرة أخيرة دونا عن الجميـع. أرادت أن تلمحه مرة واحدة أخيرة.

تسللت إلى خيمته فى بكرة الصبح. ووقفت برهة تتأمل وجهـه الحزين. صار مجبولا على الحزن حتى و هو نـائم. تتسـاءل إن كـانت ترغب حقا بالرحيل؟ لماذا يشق الأمر عليها هكـذا؟ هـو الـذى عـانت بيديه الأمّرين.

و ما كـادت تخـرج حـتى لمحهـا الخليـل فسـارعت تجـر ملائتهـا خلفها و تخرج فى عجالة.

خرجت تتلمس طريقها بين خيام الجمع و تلـك الـبيوت القليلـة المتناثرة. تخشى أن تلتقى أى شخص تعرفه.

وصلت إلى المقابر. لم تدخلها. بل وقفت على مدخلها تخاطب الجد أن سلام عليك يا حبيب. سلام عليك.

أعقبت ذلك بسير طويل. و كانت فى كل لحظة تلتفت إلى الخلف تتأمل هذه الأرض التى بدأت تشهد بداية عمرانها من بعد توقيع الصحيفة. بعضها يرغب بالعودة. هى آمنة تماما هناك. ادركت هذا الآن. بقيت آمنة طويلا.

طال بها السير تنتهى البيوت و يعقبها صحراء تفصل بين الجمع نفسه و السور. سور يكد العمال برفعه ليحوط هذه المدينة الجديدة و يؤمنها.

عبرت منه إلى طريق. طريق يعرفه القلائل. نفس الطريق التى هربت هى منها أول مرة. حيث مساحة ضخمة من الاشجار تنتقل بك إلى بيوت خدم العلا. و منها إلى أرض العلا نفسها!

بيوت الخدم بيوت متقاربة كثيرة. لها بنيان جميل و ألوان حوائطها مبهجة. و إن كان بيوت بسيطة و لكنها تحمل من البهجة ما لا تحمله أرض العلا نفسها. أرض فارغة طوال العام إلا فى إجازات محددة يسمح بها أعيان أرض العلا.

انهتها ليال أخيرا حتى خطت قدماها أخيرا أول خطوة فى أرض العلا.

و ما إن فعلت حتى شعرت بشعور غريب. انقباض شديد بقلبها. و ثقل بسيرها.

أخذت تتأمل القصور بعينين متقدتين حزينتين. الأرض الممهدة تحت أقدمها و التى هى على شكل أحجار مربعة متجاورة. السير عليها أهون من السير على رمال أرض الجمع. و لكن شتان بين حنو الرمال هناك و قسوة هذه الحجارة.

البيوت من حولها و اتساع الشوارع الذى لم تره منذ سنوات. كأنما كل بيت هو مدينة وحده. إن رصدت عينيك أول البيت فإنها من المؤكد لا تر آخره. ألوان الزهور المتباينة. و التى تتدلى على السور المحيط. البيضاء منها تتسلق فروعها لأعلى و الوردية تطل من فوقه . و كلما زادت عدد ألوان الزهور المطلة من السور كلما دل ذلك على رفعة شأن صاحب البيت. فقد كانت زراعتها

مكلفة للغايـة. خصوصـا على أرض كـانت صـحراء قفـر فى يـوم من الأيام.

تتأمل المكان و تتساءل:

-لم لا تربطنى ذكرى بهذه الشوارع. فيجيب عقلها:

-ربما لقسوتها و ربما لقسوتى .

السماء مختلفة تماما هنا. ليس الأمر فيها هى نفسـها بـل فى تلاقى قباب القصور العالية مع صورة السماء.

-لم ادرك قبل قدر قسوة أرضنا. قالت ليال تخاطب نفسها.

***

بعد سير طويل داخل أرض العلا. الشـوارع فارغـة إلا من بعض الخدم يقضون طلبات أسيادهم.

الأسـياد لا يظهـرون فهم يتحركـون داخـل عربـات مزينـة . عربات لم تر ليال الكثير منها خارج أرض العلا إلا بين حين و حين.

أنتهى سيرها أمام دكان . مكتوب عليـه دكـان عم عطـا. دكـان كبير متسع يحوى من أصناف العطارة ما جئ بِه من كـل البلاد. يتكئ رجل عجوز على كرسى خشبى عند بابه.

اقتربت ليال من ذلك العجوز نحيل البنية له لحية بيضاء طويلة و رأس بشعرات قليلة يقترب إلى الصـلع. كـان يرتـدى بنطـالا لونـه بنى. و فوقه سترة بالأخضرالداكن. متكئ على مدخل الدكان يراقب الزبائن.

عم عطا. رجل طيب هو من ربى ليال مع أبيهـا و دللهـا. كـان صديق أباها رغم فارق المكانـة. هـو من أخرجهـا من أرض العلا بعـد وفاة ابيها وهو من وصل إلى ثنية قبـل بمـدة. و كـان يمثـل سـبيل التلاقى.

اقتربت ليال أكـثرمن العجـوز عـل نظـره الضـعيف يلتقطهـا و لكنه لم يميزها. اقتربت اكثر هنا انتبه شاب صغير داخل الــدكان و كان مراهقا حديث السن :

- من أنت؟ قــال الشــاب متطلعــا إلى ثيابهــا الرثــة قبــل أن تقترب ليال أكثر من عم عطا و تقابـل وجهـه العجـوز و هى تقول:
- ألم تميزنى أنت أيضا يا عم عطا؟
- ليال أهذه أنت!

أقلبلت ليال على العجوز و قبلت يديــه و هى تبكى . احتضــنها العجوز و هو يقول: -أوقد عدتى؟ أخيرا!

جلست ليال إلى عم عطا داخل الدكان.

عاود العجوز سؤالها مجددا:

-يا ابنة عَمران. يا ابنة الحبيب. ماذا فعلتى كل تلك المدة هناك ؟ أوقد علمو؟ سـأل عم عطـا بشـكل متتـالى و صـوت عجـوز مهـتز متأنى. و أعقب و هو يشد على يدها و يضحك :

- قست يداك و ادعو الله الا يكون قلبك قد قسى.

-ليست يداى وحدها يا عم، قسـوت كلى و لكنهـا تلـك القسـوة التى آخرها ترق رغما .

فتح عم عطـا درجـا فى مكتبـه . الـدرج الثـالث و كـان مغلقـا بإحكام. أخرج منه مفتاحا و مد يـده يدسـه فى يـد ليـال الـتى قبلت يداه و رحلت.

و ما كادت تخرج حتى ناداها عم عطا مجددا يسأل:

- هـل عرفـو قـط من أين قـدمتى يـا ليـال؟ . بسـمت ليـال و قالت:

-منذ اليوم الأول يا عم .

عاودت ليال الولـوج إلى الـدكان و كـانت باسـمة و قـد تـذكرت قرب تلاشى العلامات عن جسدها تماما. و أعقبت تقول:

- و تشربت يا جدى من سمرة شمسهم. سـألها العجـوز الـذى شعر ببعض طمأنينة فى تبسمها :

-و هل شمسهم غير شمسنا يا ليال؟

-نعم أجابت ليال و أعقبت تقول:

-إن شمسهم تطلبهم كثيرا تحتهـا و لا تـرغب عنهم بقصـور و مظلات. ثم قالت تتنهد :

-شمسهم شديدة حامية و لكن البقـاء تحتهـا ضـرورة فيـومهم ينتهى مع غيابها .غيرنا يا عم عطا.

***

بعد سير لم يطل من دكان عم عطا وصلت ليـال إلى بيت يبـدو كبيت مهجور مقارنة بما حوله..أخذت تتأمله وقتا. تقـترب من البـاب ثم تعاود الابتعاد. تتحرك يمنة ويسرى فى ارتباك.

انتهى الأمر بفتحها للباب رويدا رويدا.

أكملت طريقهـا إلى الـداخل تتطلـع إلى شـجراته التالفـة و الأرض الممتلئة بـأوراق خريفيـة ذابلـة و تلـك الأتربـة على الطريـق المؤدى لبابه الداخلى.

ظهر صوت من خلفها يقترب فى سرعة. حين دارت ليـال كـان الخليل بجسده الضخم يقترب. كان خلفهـا تمامـا . افزعهـا فارتـدت إلى الوراء و سقطت على الدرج المؤدى للبيت. مد يده يقمها و لكن امتنع فى اللحظة الأخيرة مع انسحاب جسدها عنه فى خوف.

لم يبـد أن الخليـل بوعيـه فجلس إلى جوارهـا على الـدرج فى هـدوء مخيـف. لم يصـرخ و لم يعنفهـا و لم يكن غاضـبا أبـدا. جلس فقط.

دار بذهن ليال الكثـير من التسـاؤلات و الأفكـار أنتهت بسـؤال وحيد بسيط:

-ماذا تفعل هنا؟ . و لكن لم يأتها جوابا بل تركها الخليل و صعد الدرج دخولا إلى البيت.

كان البيت مظلم مردوم بالأتربة. يشبه بيت السفح الذى كبر به الخليل مع اختلافات بسيطة و رقى شديد فى الذوق.

تحرك الخليل خلال دهليز ممتد و منه إلى مساحة ممتدة تحوى مساحتين متقابلتين من الأرائك. كل واحدة تحنو مقاعدها حول بعضها لا تبدو ألوانها واضحة من سمك الأتربة التى تغطيها. تحرك الخليل خلال شرفة مقابلة لنهاية الدهليز. تتبعه ليال متعجبة. أخذ يتطلع من الشرفة إلى الحديقة الذابلة شجراتها.

عاود الدخول إلى البيت. صعد درجا ينتصف البيت. و كانت عيناه تجوب كل تفصيلات البيت تتأمل الستائر الزرقاء و كريستالات السقف و التى هى أضخم من تلك التى كانت بقصر أبا الخليل.

مال إلى الأرض يزيل بعض أتربة عن البساط الذى تحول لونها السمنى إلى رمادى. ثم تحدث للمرة الأولى يقول:

- أهنا ولدتى إذا؟ و لكن لم يأته جواب. أعقب الصمت بسؤاله:

-لماذا هربتى؟ لم يأته الجواب كذلك و ما كان ينتظر هو جوابا على أية حال. بل استمر يجوب البيت و هو يقول:

- لطالما فكرت كيف نشأتى يا ابنة أرض العلا! من شدة تمسكك بالبقاء ظننت للحظة أنك كنت أحدى خادماتهم.

أكمل طريقه و صعد لأعلى. مر على حجرات ثلاث يتطلع إليهم من الخارج و يمر دون الدخول. أمام الحجرة الأخيرة وقف فترة. ثم قال و هو يمد قدمه اليمنى إلى داخل الغرفة:

-هذه غرفتك؟

-كيف عرفت ؟ سألت ليال و قد فك لجام لسانها .

-إنها تشبهك قال الخليل.

- كيف ذلك ؟ تسأءلت ليال و هى لا تنتظر جوابا بل تقدمت تتأمل غرفتها.

خزانة كبيرة تجاور الفراش. و الفراش كبير محشو بالقطن و مفترش فوق دعامات من الخشب مرتفعة عن الأرض قدر ذراع. و الحائط من ورائه تملؤه الزخارف و النقوش و هى نفس التى تغطى الخزانة. كانت تمرر يداها على كل ما يقابلها رغم ممانعة الأتربة التى تعلو سطح كل شئ.

كان الهدوء و الصمت يطغى عليهما حتى سأل الخليل:

-لماذا رحلتى الآن؟ كان فى سؤاله بعض لوم كذّبه عقلها.

وجدت نفسها تفتح الخزانة و كانت تحوى أثواب عديدة مرتبة من ألوان مختلفة مشرقة. توحى باشراق نفس صاحبتها.

تكومت و جلست داخل الخزانة و أغلقت عيناها . بقيت على هذه الحال حتى سألها الخليل عم تفعل. فلم يكن منها إلى أن رجته البقاء معها قليلا. ثم أعقبت:

-إن كنت سأبقى هنا فلابد أن أعاود اختبار كل زوايا البيت و وجودك يسهل على الأمر.

لم يفهم الخليل مرادها و لكن الأمر الوحيد البين كان صوتها الذى تقطعه رعشة مفاجئة و شحوب بدا على وجهها و هى تقول:

-هنا اختبأت عشرون يوما من رائحة أبى!

لم يفهم الخليل. مد يده يخرجها من الخزانة و هو يتساءل:

-ماذا تفعلين؟

كان شحوبها يخيفه. هيا نخرج من هذا البيت . فلنعد إلى أرض الجمع.

سحبت ليال يدها بقوة و خرجت تسبقه و هى تقول:

-أنا لا أرجع معك أبدا.

حاول الخليل تجاهل غضبها و سأل:

-أين أهلك؟ لماذا لا يسكن أحدا هذا البيت؟

-لم أكبر إلا مع أبى. كان أهلى و كنت أهله. لا أحد آخر لنا.

هبطت ليال الدرج وقامت بفتح كل منافذ النور فى البيت لتلتمع الكريستالات الضخمة و تصنع انعكاسات فاتنة فى كل زوايا البيت. و لكن لمع معها حبل أسود اللون يتدلى من السقف يعلو طاولة فى منتصف البيت تقابل الدرج .

مدت ليال يدها تسحب الخليل الذى كان يقف على منتصف الدرج يعاود تأمل البيت بعد فتح ستائره. أوقفته جوار الطاولة و قالت:

-تطلع! كانت تشير إلى الحبل المتدلى من السقف.

كان الخليل هادئا و ساكنا . كأن بعض ألمها يصله و لكنه لا يستطيع كبت ذلك الفضول الذى يعتريه. سألها:

-ما هذا؟ أطرقت صامتة صمت أعقبه دوران حول الطاولة .

قامت بضم أطراف ملائتها معا و مدت يدها تمسح الطاولة. أثارت الأتربة اضطرابا فى الجو و لكنها أكملت. حتى ظهرت بقعة مختلفة اللون فى منتصف الطاولة.

تطلعت لأعلى تتأمل الكرستالات المتدلية و التى يكثر عددها تحديدا فوق الطاولة. و قالت، كل البيوت هنا متشابهة .لكن كان الهواء داخل هذا البيت قد تغير قليلاً فى وقت من الأوقات و كنت قد نسيت .

أعقبت و هى تقابل الخليل الذى أطرق صامتا يخيفه حالها و أضطراب شفتيها و جانبى خدها:

- ألم تتساءل على الدوام لماذا رحلت! لهذا السبب رحلت و كانت تشير إلى البقعة على الطاولة.

أعقبت ليال و كان بعض الهدوء قد حل على صوتها:

-أتعلم كيف كان عقاب الخائن!

و أعقبت:

-الخائن بأرض العلا ليس كأى خائن. و قد يقال عنك خائنا لكونك مسالم أكثر من أى شئ آخر. يكفى حتى أن يكون لك من الأعداء قلة قليلة مجتمعون. ثم نوهت فى اشارة خفية فهمها الخليل :

- و قد كان أبى صالحا، صالحا أكثر مما هو مطلوب .

أطرقت صامتة قليلا و قد عاد اضطراب صوتها و لكن صحبه دمع لم تحاول منعه. و إنما تركته يفر هاربا:

-هنا عُلق أبى ثلاثون ليلة .

عادت تلتف حول الطاولة ثم مالت تدنو من البقعة التى تنتصفها و قالت:

- قــد تركــو لى بعض تــذكار منــه. كــانت تشــير إلى الــدماء المتجلطة تحت يدها. ثم حاولت الصـعود تبتغى لمس الحبـل المتدلى من أعلى يدها إلا أن منعها الخليل. أعقبت :

-الخائن بأرض العلا يعدمونـه رميـا الرصـاص و لكن يجب أن تكون الاصابة طفيفة، فى القدم مثلا. ولا ينتهى الأمـر عنـد ذلك. فلابد أن يعلق داخل بيته على مـرأى و مسـمع من كـل أهله.

و الــبيت يُفتح فى اليــوم الأول لكــل من يــرغب بالــدخول و التشفى. بعد ذلك يغلقون كل منافـذ الـبيت شـهرا كـاملا و لابـد أن يبقى أهله معه ثلاثـون يومـا. حـتى يمـوت و هـو يقطـر اخـر قطـرة بدمه.

عاد نحيب يتخل الأهتزازات بصوتها و هى تقول:

- و لكن لم أهرب بسـبب تلـك التفصـيلات. هـربت لأنـنى كنت وحدى. أنا فقط أهل أبى. بقيت هنا عشرون يوم و ليلـة يـا خليل.

اختبئت بالخزانة العلوية من رائحة تعفنه. تلك الرائحة المنبعثة من جثته و التى تخللت كل جوانب الـبيت كـانت أشـد إيلامـا من كـل شئ آخر. حاولت اسكان ألم قلبى . و كان بإمكانى أن أغمض عيناى و لا أرى جثة أبى المعلقة فوق رأسى. أما تلك الرائحة.. لم استطع!

مد الخليل يده إليها امسك بمعصـميها و دس وجههـا فى بدنـه. قال يطمئنها :

- هيا نرحل من هنا. لا يمكنك البقاء بهذا البيت على أية حال.

أعقبت ليال كأنما لا تسمعه:

-كان الوصول إليكم أشـبه بمعجـزة . نـالنى من الحـراس على باب القصر ما نالنى و لكنى تمكنت من الخروج أخيرا. بعـد محـاولات ثلاث عوقبت في إحداهما بالحرمان من الطعام ليال ثلاث و عـوقبت فى الأخيرة بالضرب. اعقبت و قد تطلعت للخليل:

- يضعونك فى بساط و يلفونك به لضمان الا تقتلك الضـربات المتتالية ثم يضـربون على البسـاط حـتى تملأ الكـدمات كـل جدسك.

عاود الخليل امساكها من ذراعها و جرها هذه المـرة فسـحبتها بقوة تقول:

- **أنا لا أعود معك أبدا. و أعقبت و كأنما تذكرت سبب قدومها:**

- **هذا المكان بكل قسوته ليس أشد قسوة منـك. ذلـك النفـور بعينيك لم تعد لى طاقة بحمله.**

- **عن أى نفور تتحدثين؟ قالها الخليل بهدوء ممتزج باليـأس و الحزن . ثم أطرق صامتا لوهلـة. عـاد يقابلهـا و كـان يسـتند بيده إلى الطاولة و يميل قامته فيقابل وجهها:**

- **أتظنين أن جسدى ينفر منك. أوتظنين أن كـرهى لـك أنت و أنا أكره قلبى الذى يميل إليك عنى حتى يكاد يخترق اضلعى و يتركنى.**

أطبق صمت على ليال الـتى لم يبـدو أنهـا تفهم. أعقب يقـول بصوت أكثر خفوتا و هو يحمل وجهه بين يديها:

-قلبى الذى تعلو دقاته كلما رأيتك.

أبتعد عنك رغبة فى ألا ترين ارتباك يرتسم على وجهى إذا مـا لمحت طرفك.

تحدثيين فيصبح أثر صوتك على روحى كـدقات طبـول حـرب. و اختلاجة تحدثها كلماتك الهادئة ترقق غضب أعوام بلحظة.

أحاول لجم عيناى فتخونان عهدى و لا تكفان عن النظر.

أطبق الصمت على كليهما وقت طال، لم يشعر الخليل و ليال بمروره إلى مع اقتراب الليل و انحسار النور .

قام الخليل و مد يده قال:

-هيا فلنخرج من هذا البيت.

أوقفته ليال و همت ببكاء كأنها طفلة صـغيرة و كأنهـا لم تبـك قط منذ سنوات. احتضنها الخليل ووضع كفها الصـغير على صـدره و قد خفت صار يهمس بالقول:

-كم ضربت ها هنا مرارا و تكرار اقول أمسك! فـأنت الخليـل و هى ابنة العلا . كم عذبنى قلبى بسببك يا ليال!

كـان يمـرر يـده على شـعرها و هى لا تـزال تـدس وجههـا فى صدره:

- تساءلت عن ذاك الشعور تجاهك. حاولت مقاومته لكنـه كـان كل يوم يخترقـنى و يتشـعب و يخلـق لنفسـه جـذورا قويـة بـداخلى فلا يسـعنى إلا التسـليم. و لكن حـتى التسـليم لم يكن يساعدنى و نيران قلبى تشتعل . كأنما انـا اسـوى على جمر. و تسوى نفسى على لهيب. و يتـأجج صـدرى بحرقـة و ألم.

16

-أين علّى يا ليال! هكذا تساءل الخليل.

-عله بالخارج يلعب مع الأولاد.

-ألا تخرجين معنا؟

-إلى أين ؟سألت ليال.

- إلى الجد. قال الخليل و هو يشير إلى بحديثـه إلى قـبر جـده غالب.

-و هل هى ذكراه اليوم. آه كيف نسيت هذا؟

قامت ليال و ارتـدت عباءتهـا. صـارت العبـاءة هى البـديل عن الملاءة فى الأعوام الاخيرة. تشتريها النساء من تجار العلا. وضـعتها ليال على جسدها فى عجالة و خفة و تحركت مع الخليل.

خـرج الخليـل أمـام الـدار يتأمـل علّى الـذى قـارب على إتمـام الأعوام العشر. يشب على هيئة الخليل بطول يزيد فيه على اقرانه. و يحمل من ليال أنفه تظهر بعينيه كلما نال توبيخـا. و تتلـون عينيـه بالزيتون مثلها.

يلعب مـع الأطفـال لعبـة لم نعرفهـا بأيامنـا. يكـورون ملابس كثـيرة بـداخل قماشـة على صـورة مسـتديرة بحجم كفـتي اليـد، يسمونها كرة. يلقـون بهـا على الأرض و يركضـون خلفهـا. فـريقين منقسمين كل فريق من أربعة أو خمسـة أفـراد، و لكـل فريـق جهـة يحميها محددة بقالبين من الطوب.

تفصـل القـالبين مسـافة ذراعين إلى ثلاث أذرع. يقـف أمامهـا فتى كدرع حماية أخير، مانعا كـرة الأقمشـة من الـدخول بين قـالبى الطوب.

لعبة لابد و أن من اخترعها شـخص يهـوى الحـروب و إن كـانت حرب مؤقتة، بين فريقين يتنافسان بشكل مؤقت. حتى و إن صـار الفريقين فيما بعد متنافسين ثابتين.

اقترب الخليل ينادى :

- يا علّى اقترب.

-ماذا يا أبى! اقترب علّى فتلقى ضربه من الخليـل على رأسـه يقول:

- بل قل نعم. فأجاب الفتى بمكر تلفه أبتسامة:

-نعم يا خليلها.

كان علّى الصغير يمازح أباه دوما بهذه الكلمة بسبب نـداء أمـه دوما للخليل بخليلى.

أردف الخليـل يتقـدم علّى فى المسـير و هـو يقـول جـدك قـد اشتاق لك سنذهب لرؤياه. سأل الصغير:

- و ما أدراك أن جدى قد اشتاق . أوليس ميتاً؟

شد الخليل على أذن الصغير اليمنى و قال:

-إن أخبرتك أن جدك اشتاق لك فقد فعل.

ثم و كأنما غاب بعقله قليلاً و قال:

-و من قد يشعر به غيرى، هيا معى . قال علّى:

-حسنا انا اشتاق له ايضا، ثم اعقب دون انتظار جوابا من والده :

-والله لا أكذبك أنا حقاً أشتاق لجـدى. أجـاب الخليـل الـذى بـدا مستعجبا:

- و هل أخبرتك أنك كاذب!

مر الخليل مع ليال على البلدة التى تغيرت معالمها تماما. تذكر فى الطريق إلى جده قدومهم أول مرة إلى هذه الأرض. تعجب كيف كانت هذه الصحراء و كيف صارت!

لا يزال مرمى البصر قـرب النهـر ذهبيـا. و لكن بلـون القمح لا لون الرمال. قمحا امتد على جانبى النهر.

صارت الدواب القليلة و ازواج الطيور أمة كاملة منفصلة يحوى كـل بيت منهـا . و بكـل بيت مقتـدر يوجـد عجـول أو خـراف. أمـا البيوت الأقل اقتدارا فكانت تحوى شتى أنواع الطيور من بــط و أوز و دجاج.

تحول الحاجز البشرى إلى سور عال من الحجارة بسمك كبير.

سور عال مهيب يحوط المدينة بأكملها و يؤمنها تماما.

اتم بنيانه رجال الجمع بعدما تم تقسيمهم إلى مجموعات و كل مجموعة يترأسها مشرف من أرض العلا يراقب ارتفـاع السـور يومـا بعد يوم.

فوق السور ثمانون بـرج مراقبـة يسـهر عليهـا جنـد من العلا و السفح معا.

أما التجارة فلا تتم عبر تلك الحدود التى أصبحت مغلقة تماما. بل تتم من بوابة أمامية للمدينة مفتوحة على الصحراء من جهة الجنوب و التى قدم منها كل أهل الجمع منذ سنوات عديدة مرت.

بوابة يحرسها عدد كبير من رجال العلا حسب الصحيفة. يؤمنونها تماما حتى لم يعتد أحد على أرض الجمع طوال سنوات عشر مضت.

السوق يكون مرة وحيدة كل ستة أشهر. و يأتى إليه تجار العلا بالبذور و شتى أنواع الاقمشة. لكن ليست الأقمشة الفاخرة بالطبع. ليس لانهم فقط فى أرض الجمع لن يتحملو كلفتها، و لكن لأنه كيف يرتدى أهل العلا و أهل الجمع نفس الملبس!

السوق يقام عند البوابة نفسها التى تفتح على مصراعيها. يحوى ما تبرع نساء الجمع فى تصنيعه من زبد و جبن و رايب. و يبيعون بعض الطير الذى يملكونه بعد تسمينه. و يبيعون جلود الثعابين و فراء الثعالب. و يصنعون من ريش الأوز و البط أحيانا وسائد بعد نتفها. و صنائع أخرى كالعجوى و الدقيق و بعض أطعمة شعبية يجهلها أهل العلا و يتهافتون على شراءها.

يتبادل تجار العلا ما يقدمون به مع تجار الجمع. الأمر الذى تغير بعد ذلك و صارت الدراهم هى وسيلة البيع و الشراء بينهم.

بعض البيوت لا زال بيوت صغيرة، و البعض الآخر صار بيوتا من طابقين . مقسمة من الداخل. و تفترش بعضها بأثاث بسيط و حصر و سرادقات تلين الأرائك..

وصل الخليل إلى قبر الجد و الذى صار حديقة تحوطها الأشجار من كل جانب. جلس الخليل أمام مقبرة جده و التى فُصلت، و حوطها سور خشبى مرتفع و مغلق من الأعلى و تفتح به فتحة صغيرة. صار يشبه المقام. يأتى أهل الجمع إليها ينالون بركته بالمسح على خشب الحجرة الصغيرة.

قال الخليل:

- **ها قد احضرته لك يا جدى، ألق السلام على جدك يا علّى.**

قال علّى متهللا:

- **أوحشتنى والله يا جد و لو لم أرك قط.**

قالت ليال:

-اشتقنا كلنا لك يا جد. أعقبت:

- **لو أنك ترى المآل الذى صرنا إليه. تطلع الخليل إليها يقول:**
- **لقد تيقن الوصول فحتى إن تم الوصول بعد وفاته فالمهم أنه تم.**
- **و لكن.**

-لكن ماذا سألت ليال.

- **هل هو الخير؟**

جاء الجواب من ليال تقول:

-مرت عشر أعوام يحوطها استقرار إلا من بعض حوادث من حين لآخر. أما غير ذلك فإننا لم نعطش قط و لنا قوت يومنا لأيام قادمة.

كان الخليل معتادا أن يسير مسندا يده و محوطا بها فوق كتفى ليال. هام بين البيوت و لمح قصر أباه . مرتفع فى منتصف البلدة له قلب كالمأذنة عال و له حديقه خضراء متسعة يشبه كثيرا بيته القديم فى السفح. و كان ما حوله يشبه ملحقات السفح كثيرا إذا هو قورن به.

حل على الجمع منذ خمس سنوات. لم يدرى أحد لماذا لحق بهم بعد كل تلك السنون! و لكنه حل و بنى لنفسه قصر جميل لم يدرى أحد كذلك من أين أتى بالمال اللازم لرفعه.

و عادت معه ثنية عادت زوجة له. و كانت قد خسرت يدها اليمنى بعدما زاد وزنها و رفضت خلع الاساور الخمس من يدها. و انتهى الأمر بتعفنها و اضطرار حكيم البلدة لقطعها.

كان القصر يشعرك بحنين إلى السفح فقد بنى على هيئته تماما. نفس الحديقة و نفس السلالم . تلك المساند الحجرية. و ألوان البسط، و السرادقات، و نفس كرستالات السقف. نفس زاوية سقوط الضوء على أرض الغرفة. لا شئ مختلف أبدا. كان مع ذلك يثير فى نفس ليال ذعرا و يذكرها بأول يوم لها بأرض السفح.

هبط الجـد السـلالم على صـوت حفيـده. و مـا أن وصـل ادناهـا حتى جرى إليه علّى يحتضنه.

صار العكاز بيدي أبا الخليل كقدمـه الثالثـة لا يسـعه السـير إلا مستندا عليها. وخف بريق النقش الذهبى عليه. مال و احتضن علّى.

التفت الخليل إلى أباه و تساءل:

-كيف صحتك يا أبى. أجاب أبا الخليل:

-تتحسن إن أخذت ولدك و رحلت من هذه الأرض الملعونة.

-مجددا يا أبى!.

كان الجد لا يفتأ يسأل الخليل الرحيل كلما رآه. لا يفتـأ يرجـوه الذهاب و العودة إلى السفح.

لم يفهم الخليل أبدا سبب إصراره. اعتـبره حالـة من الحـنين و شعور بالغربة يدفعه إلى الحديث الـدائم عن السـفح و العـودة. لكن ما كان الخليل يخشاه دوما هو قوله الدائم:

- **قد قايضت بكما و بهذا القصر!**

17

هدوء عم على البلدة. أمن و استقرار يظهر فى كل شئ. كل جماعة لها مخزون كافٍ لأشهر طويلة. الزراعة تزدهر يوم بعد يوم.

مشاعر الحقد و الغضب تجاه العلا قد قلت. أما الأطفال الصغار فكانو لا يحملون إلى أرض العلا إلا التبجيل و المحبة. فهم قد كبرو على حقيقة أن زادهم و زوادهم هو من خير العلا.

و أن تلك المساحات الشاسعة المزروعة هى كذلك خير العلا! و أن ذلك السور العالى المرتفع يسهر عليه رجال بعضهم من العلا! يبيتون على حمايتهم مع أقرانهم من السفح!

تفصيلات البيوت من حولهم بها شئ يختلف عن السفح رغم تشابه البنيان فى مساحات كثيرة. الصلابة البادية على حوائط كل بيت. و تلك المتانة لسقف مصنوع من حجارة قوية لا من جزوع نخيل. تلك الطمأنينة التى تظهر نتاج معرفة كل رجل بجاره و كل امرأة بسلفتها و كل صبى بصاحبه. تاريخ كل شخص هنا معروف فقد بدأ منذ أعوام عدة ليست بالكثيرة.

أعوام عدة قامت بغربلة الرجال. فغالبية الخوارين هربو منذ أول مصيبة حلت على الجمع. حين تركو البقية للموت بنيران العلا! لم يبق إلا أصحاب العزيمة.

ثلاثون عاما ابقت رجال حقيقيون بإمكانهم الميل و التسند ببعضهم البعض دون خوف. رجال لا يمكن أن يضربو بعضهم البعض فى ظهورهم! و نسوة يفخرن بأن ازواجهم صمدو أمام جبروت العلا منذ سنوات طويلة!

هل هؤلاء هم أبناء العلا! هل من ساعدونا لرفع هذه الأرض هم نفسهم من قتلو منا مئات حين حاولنا العبور خلال أرضهم إلى المنبع! نعم.. و لم لا؟

و مرت الأيام ولا شئ يعكر صفو الحياة شئ. و وسط كـل ذلـك السلام دخـل الطـاعون إلى البلاد . و حـل خرابـا عليهـا و انقلب مـع دخوله كل شئ!

عامين متتـاليين. خسـر فيهم الجمـع مـا يقـرب من ثلث أهلـه. بعض البيوت قـد أبيـدت عن بكـرة أبيهـا فلم يبـق منهـا فـرد.و بعض القبائل الصغيرة كذلك انقطع نسلها تماما! احدهم قبيلة البرابرة و هم جماعة سكنو الصـحراء طـويلا فى خيـام. و كـانو يعيشـون حـول الأبار. فإذا ما جف بئر يبحثون عن غيره.

و جاء الأمر من المالك بإغلاق بوابة الجمع! و قد كان! تم قفل البوابة تمامـا. أمـا المعونـة فكـانت تلقى إلى أهـل الجمـع من فـوق الأسوار طوال عامين كاملين. معونة تكفى حاجة الجمع و تزيد.

عامين لم تبق فيهما دابة أو طير على قيد الحياة!

و حلت الفاجعة على الخليل و ليال بفقدانهما أصحابهما!

رحل أسعد و معه نعمات و كل أولادهم. واحدا تلو الآخر! رحلـو و تركو فتاة صغيرة عنى الخليل و زوجه بتربيتها.

و رحل كذلك أبا الخليل. تاركا فى وصـايته ملكيـة القصـر لعلّى الصغير.

و أضطرت ثنية -التى لم يعد بدنها يسعفها لخدمـة نفسـها- أن تحل ضـيفة على بيت الخليـل. تخـدمها ليـال و تسـاعدها. رغم سـوء طبعها لذى لم يتغير رغم عجزها!

و تملك الطاعون من جسد ثنيـة أيضـا فعـزلت نفسـها بنفسـها خارج المنزل. و لما لم يقبل الخليـل و ليـال بفعلهـا و قـامو بعزلهـا داخل حجرة فى الـبيت. فقـد تسـللت فى نفس الليلـة إلى الخـارج. أثناء نوم البقية.

و دارت فى الشوارع حتى وصلت إلى قصر أبـا الخليـل. و لكن لم تتمكن من دخوله فقد لقيت مصرعها امامه. من البرد لا المرض.

اغلق كل رجل بيته على أهله. لا يخرجـون إلا لتلقى المعونـة و هم متسترين فى اخر الليل.

كان الرجل من هؤلاء يسـقط صـريعا على الطريـق فلا يقـترب منه أحد ولا يدفنه أحد بل يُترك على حاله تلك.

عامين مرو ثقال على كل أهل الجمع. الذين تـأملو الحـال بعـد المصاب ليجدو أنهم عادو سنوات عدة للخلف. لا يحوطهم إلا الخراب و الجوع و المرض!

***

و مر الوباء أخيرا و مـرت الأيـام و الأسـابيع و الأعـوام و بـدأت الحياة تدب مرة أخرى بين الجموع.

و لكن لم يكن الشكر و العرفان للبقاء على قيد الحيـاة هـو مـا يدور بعقل الجميع!

فقد كان عقل السليط مشغولا بأمر آخر بعد مرور الوباء.

من العجيب كيـف بإمكـان البعض أن يحولـو جـل تفكـيرهم عن الكوارث. ليس هربا منها و لكن إيمانا أنها لن تمسهم أبدا!

و لما كانت أعـداد أهـل السـفح قـد قلت بشـكل ملحـوظ و مـع نقص الأعداد و الخراب. فقد استغل السليط الحال. و ترأس جماعــة من أهله و تحرك بهم بين الناس يطالب بحقه فى تولى أمر البلاد.

كان السليط يعزى طلبه إلى كونـه زعيم الجماعـة الأكـبر عـددا فى ذلك الوقت!

بـــدأ الأمـــر بتعجب من النـــاس. و لم يلتفت أحـــد إلى طلب السليط.

و لكن مع مرور الأيام كان أهل الجور بزعامة السـليط يدسـون السم فى اذن أهل الجمع و خصيصا أهل السفح، بأن ذلك الخليل قد تزوج من فتاة العلا الـتى حلت شـؤما على البلاد. و لم يبـالى بأهلـه الذين عانو طويلا من بطش العلا!

و انتهى الجدل الدائر فى البلـدة بـأن يتم حصـر الأعـداد الـتى ترغب ببقـاء الخليـل، و الأعـداد الـتى تطـالب بتـولى السـليط أمـور البلاد.

و استمر جمع الأسماء اسابيعا.

و اسـتمرت جماعـة الجـور بقيـادة السـليط فى ضـرب سـمعة الخليل.

أما الخليل فلم يكن يبـالى. لم يحـاول اصـلاح الأمـر قـط. و لم يفكر فى الدفاع عن نفسه أو لوم السليط.

كان فقط يفكر إن كـان بإمكانـه تـرك أمـر ولايـة الجمـع حقـا! تخلق الفكرة بداخلـه شـعورا بالحيـاة! لم يدركـه إلا حين رأى صـراع السليط على تولى أمر الجمع!

حالة من السلام كانت تلفـه. و بريـق بعينيـه بـدأ فى الظهـور. مزاجه الحاد تغير و كان بيّنا جليا للجميع!

البعض تحدث بأن الخليل فقط يحاول إخفاء انكساره، و البعض قال أنه يثق بمكانته و أن السليط لن يتمكن من أخذ محله أبـدا. أمـا بقلب الخليل فقط كانت تحل الحقيقة بينه.

كان وحده يشعر بسعادة غامرة تتخلل داخله. وحده تمنى أن يزاح هذا الهم عن كتفيه، و لكن لم يأت ذلك الحل ببالـه قـط. ذلـك الأمر الذى بدا بديهيا جدا عندما طالب به السليط! و تساءل الخليل فى قرارة نفسه:

- لم لم ينازعه احد من قبل قط فى أمر الولاية كل هذه السنوات!

***

و ذات يوم -و مع استمرار النزاع بين مؤيدى السليط و مؤيدى الخليل. خرج مأمون الخضيرى على رأس جماعته- ينادى بحقه فى ولاية أمر الجمع كذلك! فهو من هو فى وضعه و يرأس جماعة ذات علم و شأن كجماعة الصنو!

و صار النزاع بدلا من كونه بين فريقين، بين ثلاث فرق. ينادون فى الناس ليل نهار! يحاولون استمالة القلوب بشتى الطرق.

كل على رأس جماعته فيما عدا الخليل الذى لم يهتم بترأس جماعة و الخروج بها. و لكن كان مؤيدوه يخرجون وحدهم و يترأسهم كل يوم شاب مختلف.

و فى النهاية نجح السليط فى مسعاه و تمكن من استمالة العدد الأكبر لتعيينه. و تملك أمر البلاد. و استطاع تحسين صورته أمام أهل الجمع فى وقت يسير، بقوته فى الخطابة و قدرته على استمالة القلوب بمرادفات قوية و هيبة جلية. و مع الوقت جمع اعداد أكبر حوله.

استطاع تحسين أوضاع البلاد التى كانت قد تأثرت كثيرا بالوباء.

و رغم كل ما توحى به هيئة السليط من شر و جبروت إلا أنه تمكن من التماسك. و استطاع أن يزرع محبته فى قلوب الجمع بأكمله!

فكان يأخذ من حق جماعته فى بعض الأراضى و الحبوب و يعطيها إلى فقراء الجماعات الأخرى.

و كان أى جدل يقع بين أهله و أى جماعة أخرى. كان ينتصر لتلك الجماعة على حساب جماعته.

و عام بعد عام عادت الأوضاع قليلا إلى سابق عهدها أخيرا.

18

استمرت حالة الاستقرار العائد بين صفوف الجمع. تزيد الرابطة يوما بعد يوم بين أهلها. فتلك الجماعات الصغيرة كانت تمثل النجاة فى أبهى صورها!

و حدهم بقو بعد كل ما مر بهم! وحدهم استطاعو الثبات حتى تلك اللحظة و البقاء على قيد الحياة!

لا يفتن بينهم شئ و لا يؤرق ليلهم شئ.

و هل كانو يتمنون ما هو أكثر من ذلك! هل فكرو أبدا من قبل ماذا لو أنهم لا زالو بالسفح أو بالصحارى البعيدة يأكلهم الجوع و يلفهم اليأس!

هل تمنو قط ما هو أكثر مما يملكونه اليوم!

لو أخبرهم أحد منذ سنوات طويلة أنهم سيجاورون أهل العلا و أنهم سيشاركونهم النهر قرب المنبع لما صدقو أبدا. و لاتهمو من يتحدث بالجنون!

و لكن ها هم ذا ينعمون بحياة لم يظنـو أن بإمكـانهم الحصـول على مثيلتها.

بين علامـات الاسـتقرار البينـة الـتى ظهـرت من بعـد تـولى السليط. كان هناك أمر واحد فقط يؤرق الشيوخ. ولا يجدون له حلا. و هو بوابة الجمع. التى لم تفتح مرة أخرى قـط، حـتى بعـد اختفـاء الوبـاء. و كـانت المعونـات تلقى من فـوق الأسـوار. و كلمـا تجمـع الشيوخ باعثين برسائل مع حراس البوابة المغلقـة. جـاء الجـواب أن المالك لم يأمرهم بفتح البوابة بعد.

لم يكن من السهل معرفة سبب تلك الحالة.. إن كان الوباء قـد مر فلماذا يبقون معزولين عن العالم الخارجى!

ذلك العالم الذى انقطعت كل أخبـاره عن السـفح منـذ تم رفـع تلك الأسوار.

لم يحاول أحد الأنضمام إليهم ممن هم خارج تلـك المسـاحة! و لو حاول أحـد فعـل ذلـك. فلم يكن أهـل الجمـع ليوافقـون بانضـمام غرباء إليهم! و هم من عانو وحدهم ليوجدو هذا الأرض!

فلماذا قد يقبلو دخول جماعة أخرى غريبة عليهم!

لكن لم تكن تلك علامة الاستفهام الوحيدة. بل كان من الغريب أن الناس الذين خرجو لم يرجعو أبدا..

كل من خرج من هذه البوابة لم يرجع أبدا.

و لما كان أمر البوابة قد زاد عن حده و كان الخبر قـد انتشـر و جاب أرجاء الجمع. فقد خرج الناس خلف الشيوخ يترأسهم السـليط. تجمهرو أمام البوابة يطالبون برؤية المرسال.

تجمهر استمر أيام عدة لا يبارح أهل الجمع محلهم حـتى حضـر المرسال.

فهم من هم مثلهم. لا يؤرقهم الجلوس طويلا خارج بيـوتهم. و هم من عانو طويلا فى الخلاء حتى أسسو هذه الأرض.

-يا الله.. هـل مـرت كـل تلـك السـنوات.. قـال عم أيـوب و هـو يتأمل تجمع أهل الجمع من حوله!

تطلع إلى الخليل الذى ظهرت بـه بعض كهولـة. و كـانت عينـاه تلتمعان. يضيع فى الماضى.. يتذكر خروجهم من السـفح أول مـرة.. يتذكر لحاقه بأهـل السـفح الغاضـبين، و هـو لم يعـرف حـتى اليـوم، لماذا لحق بهم! و هو الذى عاش منعما فى قصـر كبـير لا يعـانى من شئ مما عانى منه أهل السفح!

تـذكر السـفح و الجبـل خلفهم . مجـرى المـاء الأخضـر، الأرض البور على جانبيه. المقابر التى كانت تغطى نصـف مسـاحة السـفح. الموتى الذين يكثرون يوما بعد يوم.

العطش و الجوع. المجاعات المتتالية أعـوام بعـد أعـوام. تـذكر كرهه الدفين لأهل العلا! تذكر الفقر و الحزن. تذكر جده غالب. تذكر أمه الذى اغتصبها أحد رجال العلا ! تذكر ابوه الذى عـاد سـيدا و لكن بدون سلطة.

تذكر خـروجهم إلى الصـحراء. مـوت علّى. الحريـق الـذى التهم الخيـام بمن فيهـا. رحيـل و استسـلام البعض و تـركهم البقيـة أمـام نيران العلا!

حاول كبت مدامعه و لكن لم يستطيع.. تخرج الدموع من عينيـه كبحر منهمـر.. لم يعـد يمنعهـا! لا يعنيـه نظـرات الرجـال من حولـه، يتسائلون إن كان الخليل قد كبر و رق قلبه. و لكن شاركه عم أيـوب البكاء و من بعدهم مـأمون الخضـيرى و نعيم و ليـال. و أم سـندس.. بكت أم سندس و علا نحيبها. كانت صاحبة الخسـارة الأكـبر على مـر تلـك الأعـوام. حـتى ظهـر الشـيب على رأسـها قبـل أن تظهـر بـه ملامحها، التى كانت و ما زالت ملامح صبية صغيرة ساذجة.

استسلم المرسال فى نهايـة الأمـر لطلب أهـل الجمـع! و أمـر بفتح البوابة و لكن للتجارة فقط!

الأمر الذى أحدث لغطا. و صرح الناس برفضهم لـذلك الأمـر. و لكن اعزى المرسال كلماتـه إلى قلـة عـدد الرجـال الـذين بإمكـانهم حراسة البوابة و هى مفتوحة.

و كـان فى ذلـك إشـارة إلى ضـرورة تطـوع أعـداد من شـباب الجمع لحراسة البوابة بأنفسهم! الأمر الذى استطاع تلـيين العقـول قليلا لقبول حديث المرسال.

كان ذلك سببا لتفرق الجمع و لكن كان السبب الأكبر لانشـغال الجمـع عن أمـر البوابـة، هـو أن أن حـدث ذات ليلـة -و اثنـاء تجمـع السـليط و شـيوخ القبائـل و بينهم الخليـل- أن فض المجلس دخـول شاب عشـرينى مفتـول العضـلات و أسـمه طلال. كـان يمسـك بأحـد الصبية الصغار الذى لم يبلغ العشرين بعد و ذو بشرة بيضـاء مقارنـة بقبيلته. شابا من قبيلة النجد.

كان من البين إلى أى مكان يتجـه الفـتى. لزعيمـه نفس هيئتـه الغريبة إلا من شعر شديد البياض و جسد هزيل منحـنى. تحـرك إليـه

طلال و ألقى الفتى أمام جمع الرجال الذى لم يكن قـد تفـرق بعـد. ألقاه إلى أقدام سيد النجد و اسمه علوان الطوخى. و قال :

-هذا هو.

تساءل علوان :

- كيف عرفتموه؟

قطع تساؤله تساؤل الخليل الذى مد يده و أقام الفتى الصغير الذى

قال :

- ماذا فعل؟ أمسك طلال زراع الفتى الأخرى و قال مخاطبـا الخليل:
- ذاك أمر النجد بينهم.

كان الفتى لا زال يرجو الخليل ممسكا بذراعه. لا يجاوز عمـره السابعة عشرة. كان خائفا للغاية و حديث السن للغاية. سأل الخليـل مجددا :

-ماذا فعل ؟. تحرك علوان الطوخى بالفتى غير آبـه بـالرد على الخليل الذى أمسك بطلال يكرر سؤاله بعينيه دون أن ينطق بلسانه.

أجاب طلال يقول:

-لقد تعدى على شرف أحد شيوخنا.

***

ليلة لم ينم بها أحد. كانت أصوات صراخ الفتى تمنع عن النوم. ولا أحد يسعه الاقتراب أو التدخل. فإن كانو يعاقبون فتى منهم فلا أحد يبالى التدخل فى شأنهم . توقف عويل الفتى قبيل الفجر.

لم تنم ليال تلك الليلة و مـا ان شقشـق الصـباح حـتى خـرجت تتلمس طريق الفتى. حملت بيـدها بعض تمـرات و ملأت كـوز مـاء و خرجت ضاربة بأوامر الخليل عرض الحائط. و الذى حاول منعهـا من الخروج. ما دفعه للخروج خلفها.

حين وصلا كان يبدو أن حال ليال من حال كثيرين أخرين. فقـد كان الكثيرون غير قبيلة النجد ملتفون حول مصدر الصـوت. بعضـهم يضع يده على عينيه و البعض يضع يديـه على فمـه و يغلـق عينيـه. و البعض يفتح عينه و فمهه على اتساعهما.

كان الفـتى معلـق إلى عمـود دق فى الأرض خصيصـا لـه. كـان الفـتى ميتـا. لكن لم يكن ذلـك هـو الخطب الشـديد. بـل كـان فى طريقة الموت.

موت على طريقة النجد يكون حسب قدرة جسده على التحمل. تقطع أطرافه قليلا قليلا . تولى طلال الأمـر. فمن يكتشـف الجـرم هو من يطبق العقاب.

قام بقطع عقلة أصبع قدمه اليسرى ثم قام بكيها بالنـار حـتى لا يمـوت فـورا من الـنزف. فلابـد أن يتلقى أسـوأ درجـات العقـاب. أنتقـل طلال من عقلـة قدمـه الأولى إلى الثانيـة و من الثانيـة إلى الثالثة و من أصابعه إلى قدمه و من قدمه إلى ركبته يضرب و يكـوى و يقطع و يكوى. و لكن قبل أن ينتقل لأطـراف اليـدين كـان الفـتى قد أسلم روحه إلى بارئها.

لم يشـهد أحـد هـذا المشـهد حـتى النهايـة، إلا جماعـة النجـد أنفسهم.

***

فى صباح اليوم التالى كان الكل قـد تسـامع بـأمر الفـتى. مـر الصباح فى خوف. خوف مشروع. كيف يحيا الناس آمـنين إلى جـانب هؤلاء المجانين.

لم ينتصف نهار ذلك اليـوم حـتى كـان القـرار بـإخراج النجـد و طردهم من بين الجموع هـو الشـغل الشـاغل لجماعـة الجـور. الـتى التف حولها بالفعل العديد من الجماعات و بمختلفهـا. و الـتى كـانت ترفض ما حدث للفتى. كـان بينهم حـتى رجـال من الصـند و السـفح تحركو دون الرجوع للشيوخ.

كان الخوف دافعـا يحـرك الرجـال الـذين شـهدوا مـوت الفـتى أمس بقيادة السليط.

لم تُسلّم جماعة النجد كما هـو متوقـع و فى هـدوء، بـل تحـول الأمر إلى مجزرة. قُتل فيهـا كـل رجـال النجـد عن بكـرة أبيهم و لم يبقى إلا النســـاء و الأطفـــال. و على الـــرغم من نـــداء البعض بالاستسلام فى المنتصـف إلا أن رجـال أرض الجـور لم يتوقفـو عن القتل حتى أبادو كل الرجال إبادة كاملة.

***

لم تمر مذبحة النجد سريعا. بل كـان المصـاب جلـل و حقيقتـه مخيفة. احتاج الأمر أياما عديدة و اسابيع لنسيان الأمر.

سواء محو ذكرى فتى النجد أو ذكرى تلك المذبحة التى بدأها السليط.

هل هى الصحراء السبب فى فعلتهم! هل الخوف يخلق هذه العدوانية فى النفوس فى مقابل ما تراه من جفاء و قسوة هذه الصحراء.

أيام و أسابيع لم يرقق من وطئتها و شدتها إلا القرار الذى اتخده الشيوخ السبع الباقون بعد تشاور.

قرار بطرد السليط و قومه و كل من شارك بالمجزرة.

أما نساء النجد فمن رضيت منهن الذهاب زوجه مكرمة إلى رجل ترضاه فعلت. و لم ترضى بقيت فى حمى الخليل الذى طالبه أهل الجمع بالعودة و تولى أمر البلاد مرة اخرى.

19

مرت الأيام و صار العام عامين و ثلاث و عشر.

أعـداد الـبيوت يكـثر يومـا بعـد يـوم. و أعـداد الجمـع أنفسـهم تتضـاعف. فمـا لهم لا يـتزاوجون و ينجبـون الأولاد و هم فى رغـد عيش لم يجده اباءهم سابقا.

الأرض الصحراوية البعيدة عن مجـرى النهـر تقبلت أخـيرا بعض الشجرات داخلها، ورضيت تعشقها فى جذورها.

و أخـيرا ربمـا تقبـل أهـل العلا جـيرانهم. و بـدأ عجـائز الجمـع أنفسهم فى تقبل أهل العلا!

سنوات عدة كبر فيهما علّى ببنية قوية و جسـد عـريض. و كـبر فيها أولادها الثلاث الصـغار، سـكينة و عديلـة ، و يوسـف الـذى كـان أصغرهم و له من العمر احد عشر عاما.

و تحول شعرها الغجرى الأسود إلى خصل بيضـاء نقيـة. تجدلـه على جـانبين و تخفيـه بإيشـارب بنفسـجى. و صـار وجههـا الفـاتن يخفى بتجعيدات الكبر. أما عينيها الزيتونيتين لم يخـف بريقهمـا بـل ربما زاد.

أما الخليل فقد صار يشبه جـده غـالب. مـع فـارق فى البنيـة و الطول.

صـارت لـه لحيـة ناصـعة البيـاض ووجـه أبيض كـأن بشـرته فى الأصل لم تكن سمراء. تجعيدات العمر تبين فى كل قسـمات وجهـه. و جلابيبه التى كان يبدو فيهما جسده فتيا، صارت كانما كبرت عليه.. فقد جسده اللحم و صارت عظام كتفيه تبين من تحت العباءة.

و تزوج علّى من ابنة نعمات الصغرى و التى كبرت آية من آيات الجمال. يتحاكى عنها كل أهل الجمع.

و حملت فى طفل لم يبق فى جوفها. و كذلك الطفل الثانى و الثالث و الرابع.

و ذات صباح فاجئ علّى زوجته و أبيه برغبته الأنضمام إلى حراس أبراج العلا.

كان طلبه غريبا و توقيت الطلب أغرب.

ظن أباه أنه يرغب بالابتعاد قليلا و الانزواء بنفسه. أما الحقيقة فكان علّى وحده يعلمها.

كان وحده يشعر بشعور العاجز.

لم يعد يتحمل مقارنة دائمة بينه و بين أبيه. سيد الجمع! إفعل كذا مثل اباك! لم يكن أباك هكذا فى مثل عمرك! بالطبع ألست ابن سيد الناس! لابد و أن تنشأ هكذا!

يزيد وطأة الأمر عليه كونه لا يستطيع أن يخلف من بعدها خلفا له و لأبيه!

يقولون أن الفتى الذى يكبر فى كنف أب قوى، ينشأ خوارا ضعيفا.. فلا يجتمع شجاعين فى بيت واحد، فكيف ينشأ الغصن قويا لجذور رقيقة. و قد كان الخليل رغم شجاعته رقيق القلب. هكذا كان فى تربيته علّيا. أراد أن يصنع من ابنه فتى جيد.. لم يرغب فى فتى قوى. بل فتى صالح. و كانت النيجة نشأة فتى طيب القلب. يظن كل من يراه أنه فتى ضعيف لا يشبه اباه.

كانت تلك الأحاديث تتكرر على مسامع الفتى منذ كان صغيرا! حتى كبر لا يفكر إلا فى جعل أباه و أهل البلدة يفخرون به!

هل ظلمه كونه ابن الخليل! ربما تمنى للحظات لو انه وُلد ابن رجل آخر. و ربما كره أباه أياما كثيرا. بل كره الجمع بأكمله. و كره حقيقة أنه الرجل المخول بتولى امرهم بعد اباه!

رحل علّى تاركا فى جوف امرأته قطعة منه لم تتشكل جنينا بعد.

رحل تاركه أمه تبكى ولدها الذى لم تر أولاده بعد. تخشى أن يغيب و لا يرجع أبدا.. ماذا لو اصابه السوء من حراسة تلك الأبراج. ماذا لو جن و هو هناك وحده طوال الليل و النهار، فوق قمة مرتفعة يرقب من حوله الصحراء فقط. هل سيكفيه لحاف واحد فى الأيام الباردة. هل سيتحمل قرصات البرد المتتالية يوما بعد يوم لثلاث أشهر كل عام.

هل يثبت البرج محله إذا ما مرت عاصفة قوية محملة بالأتربة.

***

مرت الأيام و كبر الحفيد الصغير بين حنو جدته و حزن أمه و لعب جده! لا يعرف أبا إلا الخليل، ذلك العجوز الطيب. و كل يوم يمر

يتعلق أهل البيت بالصغير أكثر و يحنّون أكثر و أكـثر إلى رؤيـة ابنهم علّى!

و شب يوسف الصـغير نابغـة. يتفـوق على كـل أقرانـه. تمكنت ليـال من تعليمـه مـا لم تسـتطع تعليمـه لعلّى و كـان الفـتى يتقبـل العلوم بسـهولة و يسـر. و بذكائـه المتقـد لم يكن يجـد أى أزمـة فى تلقى العلم أكثر و أكثر. حتى أن وصل الأمر أن صـار يـدرس الفتيـة الصغار فى البلدة. و بعدما كان يمر عليهم بالبيوت فى أيام مختلفة. صار يجمعهم كل يـوم فى قصـر أبـا الخليـل و يقضـى معهم النهـار بطوله و هو فى سن السادسة عشرة.

يعلم الأطفال الكتابة تـارة و يُقـرئهم القصـص تـارة أخـرى. و يوم بعد يـوم صـار للفـتى شـعبية فى كـل جـوانب الجمـع. و صـارت الأمهـات تـأتى بأطفالهـا من كـل جوانبـه. و يبقـون معهم أحيانـا و بصحبة ابنائهم فى باحة القصر.

***

و مـر عـام و اثـنين و ثلاث، تحـاول ليـال الانشـغال مـع ولـدها يوسف فى تعليم الفتية الذين زاد عددهم بشـدة فى القصـر. و لكن لا تفتأ تنتظـر علّى و تهفـو إلى اللحظـة الـتى تحتضـن فيهـا ولـدها البكر!

تتساءل إن كانت قسوة حلت بقلبه تمنعه من زيارتها.

و مر الوقت و لم تعد ليال تستطيع الانتظار أكثر. يأكلها قلبهـا على ولدها. تبكى الليل و النهار حتى جف دمعها.

و زاد الأمر عنـدما رحلت زوجـة علّى تاركـة ولـدها! رحلت و لم ترجع من بعد ذلك و لم يرها أحد! قال البعض أنهم رأوها على بوابـة السـفح! علهـا أرادت العـودة إلى موطنهـا الأصـلى! أو الهـروب من أحاديث الناس بشؤمها على أبويها، و شؤمها على زوجها الذى رحـل و تركها!

و تناسى الخليل أمر ولده فى صحبة الشيوخ.

يجتمعـون من بعـد الظهـر كـل يـوم و يتفرقـون قـرب مغيب الشـمس. يتشـاورون فى حـال الجمـع و حـال الأراضـى و الزراعـة. مصائب الناس و شكاوى الرجال و النساء. كـل من لـه مظلمـة يـأتى بها و ينتظر دوره أمام الباب.

يتناقش الشيوخ مع بعضهم البعض و ينتهى الأمر بتطـبيق رأى الأغلبية.

أمر تمنى الخليل لو أنه ينتهى. تمـنى لـو أن بإمكانـه تـرك أمـر الجمع لغيره. و لكن من يؤمن على أحوال الناس.

و هو الذى لم يخبر أحد قـط كم أراحـه اسـتيلاء السـليط يومـا على مكانه.

كم أراحه أن بإمكانه التخلى عن ولاية أمر النـاس! و كم كـانت أيامه مسالمة جميلة.

و لكن ها هو ذا. يترأس الشيوخ رغما ولا يسعه التوقف!

***

بعد صبر طويل قررت ليال أنهـا لن تنتظـر أكـثر عـودة ولـدها. فذهبت إلى مؤنس! الذى صار جزءا لا يتجزأ من الجمع. يعيش فيه و يأنس إليه عن موطنه الأصلى.

و ما إن وصلت إلى بيته و طرقت بابه حتى استقبلها اسـتقبالا حارا!

و بعد تمهيد طال طلبت ليال أن يحـاول الوصـول لابنهـا. علـه يأتى لزيارة أمه!

وعدها مؤنس بالمحاولة و لكن ما كادت تخرج حتى اسـتوقفها عند الباب الذى كان قد واربه.

طلب منهـا الجلـوس مجـددا. و اتجـه إلى بـراد الشـاى و اوقـد تحته!

سألته ليال إن كان هناك خطب، و لكن لم يأت منـه جـواب بـل استمر فى صنع الشـاى و مـا إن انتهى منـه بجسـده العجـوز ووضـع أمام ليال كوب شاى حتى أردف يقول:

-هنـاك سـر، أحملـه معى منـذ زمن. و لم يعـد بإمكـانى الإبقـاء عليه أكثر!

تعجبت ليـال الـتى لم تفهم فى بـادئ الأمـر ليكمـل مـؤنس موضحا:

- أخبرى الخليل أننى أرغب برد دين أبى.. أبى الأحدب!

20

أجـواء الصـحراء المتقلبـة و تغـيرات الجـو الغـادرة تنبهـك إلى التيقظ من حين لحين.. كلما سلم أهل البلدة لها قليلا تأتيك بزوبعـة مخيفة تخرب على أهلها الحياة يوم أو اثنين.. فعلة الصحراء نفسـها بقلوب الناس لها اثر مختلف.

ذلـك السـور الـذى حـوط بـه أهـل الجمـع أنفسـهم و إن كـان يحميهم فإنه يعلق رؤيتك بالسماء وحدها. و يمنع عنك مد بصرك إلى الأمام أبدا.

فكلما تطلعت يمنة و يسرى صدتك الاسوار العالية.

تفكر أنه ربما بعد سنوات من الاستقرار داخل تلك الأسوار، لـو كانت الأرض مفتوحة على الاصحراء. و تلك البيوت تسلم إلى العراء. كان الأمر ليصبح أفضل و أكثر حيوية.

و مـع تـزاحم الـبيوت تصـبح الرغبـة ملحـة لتوسـيع الأرض من حولها و هد جانب من جوانب السور و توسيعه، أو ربما تركه مفتوحا إلى الأبد!

لماذا بنو هذا السـور فى بـادئ الأمـر! هـل لحمـايتهم! ممن! و هل يوجد شر غير أهل العلا فى البلاد!

هل كانت أى جماعة تجرؤ على الهجـوم عليهم و هم يجـاورون أشراف العلا! لماذا قبلو رفع هذا السور!

السور الذى أخذ اولادهم واحدا واحـدا! إن يـذهب الفـتى منهم متطوعا لحراسة الأبراج لا يرجع أبدا! ما المميز فى أبـراج المراقبـة تلك ليتعلق بها أبناءهم كل ذلك التعلق! لماذا لا يرجعون أبدا!

كان غيابهم يؤرق كل أم تركت ولدها يتطوع. و من بينهم ليال الذى كان غياب ولدها عنها كـل ذلـك الـوقت يخيفهـا، و كـذلك كـان غياب مـؤنس الـذى أعزتـه ليـال إلى خوفـه من العـودة بعـد مـا علم الخليل بحقيقة أمره!

و غاب مؤنَس أياما و اسابيعا و شهورا و غاب معه الجـواب عن ولدها عدة اشهر. لا يظهر فيهما أبدا و هو الـذى اعتـاد المـرور على بيت الخليل بين حين و حين.

و لما كان اختفاءه قد طال فقد صارت ليال تسأل عنه فى كل محل تذهب إليه.

تتحــرك فى الطرقــات منــذ الصــباح البــاكر. تفتش عنــه فى التجمعات يمنة و يسرى. و هى العجوز التى لم يعـد بإمكـان جسـدها حملها.

تخرج صـباحا ولا ترجـع إلا و قـد مـرت على بيت و اخـر و آخـر. حتى تملكها اليأس و ظنت أن مؤنس قد رحل!

يحاول الخليل منعها عن الخروج كـل صـبح و لكن ينتهى الأمـر بنحيبها و تركها تفعل ما تشاء.

تخرج بصحبة يوسف الذى كبر و صار فتى جميلا تقر عينا أبويه برؤيته يكبر.

حتى كان أن التقت عجوزا تشترى منها البيض! -عجـوز تسـكن أطراف الجمع- اخبرتها أنهـا ربمـا لمحت رجلا يشـبه مـؤنس منعـزل فى بيت قريب منها. و لكن لحيته اكبر مما اعتادت رؤيته به!

***

ذهب الخليل إلى حيث أخبرته ليال. كانت تلك المسـاحة عبـارة عن بيوت قليلة متباعدة، مر عليها الخليل بيتا بيتا يبحث عن مؤنس.

حتى كان أن دق بيتا فخرج منه رجل رث الهيئة طويل الذقن و أشعث الشعر.

رعشات تبين على يده اليسرى. فيخفيها فى جيب جلبابـه عـلّ الخليل لا يلحظ حالته.

حالة من اليأس الشديد كانت تطغى عليه.

و ما إن رأى الخليل حتى بدت على وجهه علامات تسليم! كـأن القضاء أراد إحضار الخليل إليه فى النهاية!

خرج مع الخليل دون أن ينطق بأى شـئ! و لمسـافة لم يسـأله الخليل عن شئ! فهو يعرف تحديدا لم جاء الخليل!

و لكن طـال صـمت مـؤنس فـأعرب الخليـل عمـا فى نفسـه يطمئن صاحبه:

- أتظن أننى غاضب!

و لكن قطع حديثه مؤنس يقول و هو يتلعثم:

- بإمكانى أن أخرجك أنت و زوجك و أولادك من هنـا. و أكـون قد رددت دينى!

كلمات مبهمة لم يبدو ان الخليل يفهمها.

-ماذا تقصد! لماذا يجب أن أخرج من هنا!

عاد الصمت يحل ضـيفا على الحـديث. و عـاود مـؤنس الهـروب بوجهه من مواجهة الخليل ثم قال و هو ينظر للبعيد:

- لأن أباك قايض بكما!

تعجب الخليـل! تلـك الكلمـات كلمـات أبـاه كيـف علم مـؤنس بحديث ابيه!

أعقب مؤنس أمام تعجب الخليل و سيل العرق ينزل من رأسـه على جبينه:

- لقد وعدته أننى سأتمكن من إتمام هذه المقايضة!
- كيف علمت بهذا الأمر! و لماذا تكرر تلك الكلمات!
- ألم يخبرك والدك!
- بماذا!

كان مؤنس يتحرك مختبئا و يتعمد الابتعاد عن الزحام إلى حيث النهر. كأن أحدهم يرقبه!

و ما إن ابتعد و الخليل عن بيوت البلدة حتى عاد للحديث مجددا و كأنما يضمن أولا أن الخليل سامحه:

- ألا تريد أن تضربنى حتى!

انزوى الخليل و على وجهه شـبح راحـة و قـال و هـو يجلس إلى صخرة قرب النهر:

-اااااه.. ألهذا تحمل كل ذلك الوجوم! هل تظن أننى أحمل الغضب من ذلك الطفل الصغير كل تلك الأعوام فقط لأنه ابن الرجل الذى كان السبب فى موت أمى!

أو ربما لأنه شهد تلك الحادثة! شهد وحشية أبيه!

ثم قام من فوق الصخرة و وقف يتأمل النهر و هو يقول:

- لطالما تساءلت عن حال ذلك الفتى! كيف كبر فى كنف أب كهذا! هل سيكبر فتى طبيعيا أم لا!

تطلع مؤنس الى الخليل متعجبا فأعقب الخليل:

- **أردت دوما التأكد أننى رجل طبيعى. و الان و انا أراك قد نشأت رجلا سويا. فربما أنا أيضا قد تمكنت من تمالك عقلى كل تلك السنوات.**
  عقلى الذى اتهمنى بالجنون أيام عدة!
  حتى حين أتيت إلى هذه الأرض أول مرة خلف أناس يهجرون أرضهم ظننت للحظات أننى جننت!
  حين صدقت أن بإمكاننا جميعا فتح صفحة جديدة مع هذا العالم، ظننت حينها لفترات أننى جننت.
  لو لم أجن ماذا أفعل هنا!
  و لكن الآن! ربما الان فقط يهدأ قلبى!

تنهد مؤنس الذى أثقلت كلمات الخليل عليه، فقرر فى قرارة نفسه أنه لن يبوح بما أتى لأجله.

يتطلع إلى الأبنية حوله فتتهاوى كأنما هى بعض ركام.

لم يعد يراها بنيانا بعدما جلت أمامه الحقيقة.

تأمل الشجرات التى تظلل بعض البقع و لكن لا تقبلها الرمال من تحتها فتذبل رويدا رويدا و قد صارت تدرك حقيقة الأرض البور من تحتها.

-ماذا يخبر الخليل! هل عليه حقا البوح بما علم! هل من مصلحته أن يفعل!

و لكن الخليل تساءل:

- **إن كان هذا هو الدين فكيف ترده بإخراجنا من أرضنا!**
- **أرضكم! قال مؤنس بصوت خافت و نبرة ساخرة!**
- **أوليست أرضنا!**
- **أخشى أنها ليست كذلك! قال مؤنس فى يأس ممتزج بالحزن!**
- **و لم لا تكون! تساءل الخليل!**

تنهد مؤنس و جلس إلى صخرة قـرب النهـر. تأمـل مـروره من تحت الأسوار و تأمل الحصن المنيع و الأسوار العالية!

تعلقت عينيه بأحد أبراج المراقبة و قال فى عدمية:

-لم تظن أن أهل العلا بنو لكم هذه المدينة!

لمعت عينا الخليل و علت وجهه ابتسـامة سـاخرة تظهـر فيهـا تجعيدات العجز حول شفتيه و قال:

- نحن من بنيناها يا رجل!

تحول محيا مـؤنس إلى ابتسـامة واسـعة و انتقـل منهـا إلى بكاء صامت لم يلحظه الخليل.

قام مؤنس من فوق الصخرة عاود تأمل الأسوار و قال:

- ماذا تظن فوق تلك الأسوار يا خليل!

ابتسم الخليل ابتسامة باهتة و هو يولى وجهه تجاه الأبراج فى تفاخر:

-ولدى هناك يحرسنا!

تعالى نحيب مؤنس و قال:

- قد مـات 'علّى' يـا خليـل! مـات علّى منـذ خـرج من هنـا أول مرة!

تراجع الخليل قليلا و عاود مقابلة وجه مؤنس يقول:

- هل أصابك الجنون يـا مـؤنس! علّى تطـوع لحراسـة الأبـراج أيها العجوز الخرف.

هنا اختلط نحيب مؤنس بضحكاته مجـددا و قـال بيـأس بـدا فى صوته:

- ألم تفهم بعد!

أعقب و هو يتأمل الأسوار من حوله:

- تلك الأبراج الماثلة أمامك يسهر عليهـا رجـال يضـمنون أنكم لا تخرجون من هنا أبدا!

تشـكل الاسـتهزاء على وجـه الخليـل و تخللـه بـرود مصـطنع و خوف لا يشبه الموقف! لم يدرى بما يجب عليه أن يشعر.

أشار إلى خرف أصاب مؤنس و هم بالرحيل!

و لكن رفع مؤنس صوته يقول:

- لقد جعلوكم تبنون سجنا بأيديكم!

هنا عاد الخليل ليمسك برقبة مؤنس طالبا منه التوقف فى غضب بيّن يتخلله خوف شديد.

ثم كأنما تذكر شيئا جعل بريقا يظهر بعينيه، أمسك وجه مؤنس و قام بتوجيهه جنوبا و قال بكلمات متقطعة:

- **على نهاية هذا الطريق توجد بوابة خروج. يتم فتحها مرة مع كل سوق!**

اجاب مؤنس و هو يفلت رأسه من يد الخليل و يقول:

- **بواية يحرسها عدد قليل ترونه من رجال العلا. و عدد اضخم خلف الأسوار. لديهم الأوامر بقتل كل من يفكر ترك البلدة و الخروج!**

بوابة سيغلقونها فى أى لحظة يشعرون فيها بتهديد منكم!

عاود الخليل تهديد مؤنس عله يصمت! و لكن صوت صراخ بعيد أنقذ مؤنس من قبضة الخليل.

هم الخليل و مؤنس يتحركان إلى حيث تجمهر بعيد. و ما إن اقتربا حتى وجدا أنفسهما أمام جثة منتفخة عليها علامات تعذيب تطفو على حافة النهر. و رجال البلدة يجتمعون حولها يحاولون التعرف عليها!

اقترب الخليل و لكن عجزت قدميه عن التحرك أكثر! لم يستطع الاقتراب! لقد تعرف على ثوبه! إنه 'علّى'!